بلاغة أحاديث التوجيه النبويّ للمسلم في ضوء الصحيحين
دراسة تطبيقية تحليلية

د. مُحَمَّد بن علي بن عايض بن درع

قسم اللغة العربية –كلية العلوم الإنسانية– جامعة الملك خالد – المملكة العربية السعودية

المُلخَص

هذه الدراسة اتبعت المنهج التحليلي الذي يقوم على دراسة الأحاديث واستنباط خصائص النظم فيها ، وانتظمت في تمهيد ومبحث رئيس تسبقهما مقدمة وتتلوهما خاتمة . كشفت المقدمة عن أهمية البحث وأسباب اختياره وأهدافه والدراسات السابقة له ومنهجه وخطته ، وتناول التمهيد الحديث عن بلاغة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وقام المبحث الرئيس على الدراسة التحليلية للأحاديث الشريفة والتي تناولت الجانب التوجيهي بهدف فهم سياق الأحاديث ، وتوظيف فنون البلاغة وقيمها ، وتحليليها تحليلاً يكشف عن أسرارها ويربطها بالسياق العام . وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج والتوصيات التي تمخض عنها البحث . وألحقت بها فهرس المصادر والمراجع والله الموفق .

الكلمات المفتاحية: بلاغة – أحاديث – التوجيه النبوي – الصحيحين.

مُقَدِمَةٌ :

الحمدُ لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على رسولنا ونبينا مُحَمَّد ، وبعد :

فلقد كان للرسول - ﷺ - أثرٌ كبير في بناء الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي في زمنه ، وفي الفترات التالية لعصره ، فقد كان حضوره كبيراً بين أصحابه – رضوان الله عليهم – وهو يبلغهم رسالة ربه ، ويرشدهم بهديه وأقواله وأفعاله الأمر الذي أنتج مجتمعاً يقوم على الترابط والتسامح .

من هنا ارتأيت أن أوضح جانب البلاغة النبوية ، ذروة البيان الإنساني العالي في جانب من الجوانب الأدبية والخلقية والقيمية المتعلقة بأحاديث الرسول - ﷺ -، ولذلك آثرت هذا الجانب ، لما له من تأثير عظيم في مجال التربية والتعليم ، وعليه فقد وقع اختياري على موضوع (بلاغة أحاديث التوجيه النبويّ للمسلم في ضوء الصحيحين – دراسة تطبيقية تحليلية) ، فأردت معايشة هذه الأحاديث بالبحث عن أسرارها البيانية ، والكشف عن مواطن الجمال والإبداع فيها ، وتحليليها تحليلاً يبرز أسرارها ، ويرشد إلى ما تميزت به من الوضوح وحسن التصوير وانتقاء الألفاظ ، وإتقان الأسلوب وإحكامه وجودة سبكه ، وقوة تأثيره ، مع ربطها بسياقها العام .

تكمن أهمية البحث في أنه : يعد دراسة عملية لمختلف أشكال البلاغة الحية في المجتمع المسلم ، ودراسة أثرها المباشر في توجيه المسلم وتقويم أخطائه وتصحيح مساره . وهذا الاتجاه يمثل البلاغة التحليلية في أعلى صورها ، إذ تتسع النظرة ؛ لتشمل النص كاملاً فتبرز خصائص الدلالة فتبرز ومحاسن الصياغة ، وتتلمس قيمه الجمالية وآفاقه المعنوية . ويتميز هذا الموضوع بالربط الكامل بين الدراسة البلاغية والدراسة النحوية ، وحاجة كل منهما للآخر ، ولا سيما في دراسة التراكيب وخصائصها . ويفتح آفاقاً جديدة للدارسين تتناول جوانب أخرى في بلاغة الحديث النبوي الشريف .

ويهدف هذا البحث : إلى بيان النواحي البلاغية والقيم الإنسانية وتوظيفها في كلام الرسول ﷺ . ودراسة طريقة الرسول -صلى الله عليه وسلم - البلاغية وأساليبها المناسبة في توجيه المسلم وتقويمه وتهذيب نفسه وإصلاحها. وتقدم البلاغية العالية للنبي - ﷺ - أنموذجاً للدعاة والأدباء والبلغاء والمصلحين والمعلمين في

الاهتداء به ، والاقتداء بأسلوبه ، والإفادة من كلامه -صلى الله عليه وسلم -. وبهذه الأساليب التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم تخرج البلاغة من حيز الدراسة النظرية الجافة إلى دراسة التأثير الحي الملموس والمباشر لأشكال البلاغة في عمق الحياة العملية .

أما منهج البحث : تعتمد الدراسة المنهج التطبيقي التحليلي الذي يعتمد على تحليل الأحاديث الواردة في إطار التوجيه والتهذيب والتقويم تحليلاً بلاغياً يكشف عن مطابقتها لمقتضى الحال ، ودراسة الظواهر البلاغية التي ساهمت في خروجه في صورته التي ورد عليها وأثرها على السياق العام .

وأما عن الدراسات السابقة هناك مؤلفات ودراسات علمية كثيرة عامة لا أكاد أحصيها تناولت بلاغة الرسول -ﷺ - ، منها على سبيل الذكر لا الحصر : (المجازات النبوية للشريف الرضي ، الصورة الفنية في الحديث النبوي لأحمد ياسوف ، التصوير الفني في الحديث الشريف لمحمد الصباغ ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، شرح أحاديث من صحيح البخاري لمحمد أبو موسى ، البلاغة النبوية بين النظرية والتطبيق لغالب الشاويش ، أساليب القصر في الصحيحين ودلالتها البلاغية لعامر الثبيتي ، ورعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين ليوسف العليوي . الحديث من الوجهة البلاغية لكمال عز الدين . الخصائص البلاغية للبيان النبوي لمحمد الحمزاوي ، الخصائص الفنية في الأدب النبوي لمحمد الدبل ، البلاغة في القرآن والسنة لعزة جدوع ...) . وأما عن الدراسات التي تناولت المنهج النّبويّ في تقويم المسلم وتوجيهه فمنها : الأساليب النبوية في معالجة الأخطاء لمحمد المنجد وقد تناول فيه أساليب الرسول -ﷺ - في معالجة الأخطاء بصورة كلية مجملة دون التعرض للجانب البلاغي .

وبلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس لناصر راضي رسالة دكتوراه ، وهي دراسة رائعة استفدت منها كثيراً ، وأثبت ذلك في مظانه ، وهي تختلف عن دراستي في أنها محصورة على دراسة الأخطاء القولية والفعلية كالتحاسد وسوء الظن والغضب والتشدد في الدين والشرك والكفر والنفاق والرياء والعجب والزور والكذب والحلف بغير الله والسب واللعن والغيبة والنميمة والقذف ، وتقويم الأخطاء الفعلية في الجانب التعبدي المتعلق بالأركان الخمسة وهكذا ، أما بلاغة أحاديث التوجيه النبوي للمسلم في ضوء الصحيحين ، فكانت قائمة على توجيه الإنسان المسلم وتربيته وتهذيبه خُلقياً وتربوياً وعَقديا ، وعسى أن تكون هذه الدراسة لبنة من لبنات بلاغة الحديث النبوي .

ونظراً لأن الدراسة تشتمل على جانبين ، جانب نظري ، وآخر تطبيقي فقد اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى تمهيد ومبحث رئيس يسبقها مقدمة ويتلوهما خاتمة ، تتحدث المقدمة عن أهمية البحث وأسباب اختياره وأهدافه والدراسات السابقة له ، وخطته ومنهجه . أما التمهيد فقد عرض للحديث عن بلاغة الرسول- ﷺ - وفصاحته ، ولم أطل في دراسة هذا لوجود الدراسات المستقلة لها والمختصة بها . وتناول المبحث الرئيس الدراسة التحليلية . وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي تمخض عنها البحث وألحقت بها فهرس ثبت المصادر والمراجع وبالله التوفيق .

التمهيد – بلاغة أحاديث الرسول ﷺ

حوت أحاديث الرسول - ﷺ - صنوف البلاغة ، وألوان الجمال والفصاحة ، وكانت من أبرز مظاهر عظمته ، وأجلى دلائل نبوته، وعبرت أدق تعبير عن سمو نفسه ﷺ ، وأبانت عن المنبع العذب الذي نهلت منه . والبلاغة النبوية تمتاز بأنها لا مثيل لها في كلام الفصحاء لما تميزت به من خصائص وسمات أسلوبية تعبر عن المعنى ، ولهذا تبارى العلماء والبلغاء في وصف فصاحته ، وما امتاز به كلامه -ﷺ - من جمال وبلاغة جعلته يتربع على قمة الأساليب البشرية ، ومن أفضل ما قيل في ذلك ما سجله الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) معلم البلاغة ورائدها حيث يقول : " وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة والتكلف ... واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمته ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه- ﷺ - " ([١]) . وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : " ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مخضه ، وألقى زبدته على لسان مُحَمَّد -ﷺ - فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرّجل (كناية عن العجز) وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل " ([٢]) . وقال القاضي (ت ٥٤٤هـ) : " وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم .." ([٣]) . وقال مصطفى الرافعي عن بلاغة النبي - ﷺ -: " هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها

([١]) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢/ ١٧
([٢]) الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ١/ ١١
([٣]) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض ١/ ٩٥.

مصنوعة ، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة . ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقة ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنها هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ " ([١]) .

ولما كانت السُنّة وحياً من عند الله فإنه كان لزاماً أن يكون فيها ما كان في القرآن من قوة البلاغة والفصاحة حتى يحصل بها التحدي والإعجاز ، وقد أوتي -ﷺ -جوامع الكلم ، وأيّد بفصاحة المنطق وحسن القول وقوة الإقناع وبراعة التفنن في الأساليب ، وقد كانت له مقومات وعوامل أهلته لاكتساب هذه الفصاحة والبلاغة ، ويأتي في مقدمة هذه العوامل : التوفيق الرباني والرعاية الإلهية ، والفطرة النقية ، والبديهة الحاضرة ، ونزول القرآن العظيم عليه ، وكونه قرشيا ، استرضع في بادية بني سعد ([٢]) .

وسيقتصر الحديث عن بلاغته في هذا البحث حول ما تكشفه دراسة النظم التطبيقية التحليلية من جماليات الألفاظ والمعاني السامية الغنية بالدلالات البلاغية ، وجمالية التصوير ، والتي سلك فيها الرسول -ﷺ - طرقاً فنية متعددة ، توخى منها في المقام الأول توجيه الإنسان المسلم توجيهاً عقدياً وتربوياً وأخلاقياً ووضع كل نوع منها " موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"([٣])

الدراسة التطبيقية التحليلية

أولا : أهمية النيّة :

عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه " متفق عليه ([٤]) . هذا الحديث أصل في الإخلاص وهو أحدالأحاديث التي يدور عليها أصل الإسلام([٥])، عمدة في أعمال القلوب ، ومن جوامع الكلم التي لا يخرج عنها عمل أصلا ،ولهذا تواتر النقل عن الأعلام بعموم نفعه وعظم وقعه([٦]) .

قال أبو عبيد : " ليس في الأحاديث أجمع ولا أغنى ولا أنفع ولا أكثر فائدة منه " ([٧]) . وجاءت معاني الحديث ودلالاته واضحة جلية من خلال الألفاظ والتراكيب السهلة ، وسلك الرسول - ﷺ - في بيان تلك المعاني السامية مسلكاً واضحاً في اختيار الألفاظ والتراكيب المعبرة ، فجاء قوله -ﷺ -: (إنما الأعمال بالنيات) أسلوب قصر وحصر، يفيد إثبات المذكور وينفي ما سواه ، فتقدير هذا الحديث أن الأعمال تحسب بنية ولا تحسب إذا كانت بلا نية ([٨]) وهذا القصر من قبيل قصر الموصوف على على الصفة قصراً إضافياً ؛ لخروج بعض الأعمال عن اعتبار النية فيها كتطهير الثوب من النجاسة ([٩]) . وفيه حذف ، وتقدير المحذوف : إنما صحة الأعمال أو كمالها أو قبولها بالنيات .

والأعمال جمع عمل ، وهو مصدر عمل يعمل عملاً ، والعمل أخص من الفعل من حيث الإسناد ، إذ العمل ما كان مقصوداً ، فلا ينسب العمل إلى من يقع منه الفعل بغير قصد ، ويدخل في الأعمال في الحديث الأقوال ، وحركات النفس ، هذا من جهة ([١٠]) . ومن جهة أخرى فلكل منها معنى خاص يختلف عن الآخر ، فمن ناحية الزمن نلحظ أن عامل الزمن ممتد في كلمة (العمل) دون لفظة الفعل ومعنى ذلك أن الأعمال التي يقوم بها المرء لا بد من التأني والروية وطول البال ، وهذا مما يؤدي إلى إجادة العمل وإتقانه ، وإحكام صنعه ([١١]) . ومن ناحية بناء الفعل (عَمِل) جاء على زنة (فَعِل) مثل : تعب ونصب ، فهو يفيد معنى المشقة والجهد . " قال بعضٌ من أئمة اللغة والأصول : إن العمل أخص من الفعل ، لأنه فعل بنوع مشقة ، قالوا : ولذا لا ينسب إلى الله " ([١٢]) .

وأما بناء الفعل (فَعَل) فهو على وزن فَعَل ، وهذه المادة في الغالب تدل على الحركة والحيوية ، مثل درس وضرب ،

([١]) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي٢٧٩. و تاريخ آداب العرب ، الرافعي ٢/ ٢٣٥.

([٢]) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ٢٨١ وما بعدها . و الخصائص البلاغية للبيان النبوي ، محمد الحمزاوي ٢٩ وما بعدها . و أدب الحديث النبوي ، بكري شيخ ١١٢. معالم البيان في الحديث النبوي ، عبد المحسن العسكر ٢٥ وما بعدها . و البلاغة في القرآن والسنة ، عزة محمد جدوع ٢٦٩.

([٣]) بيان إعجاز القرآن ، محمد الخطابي ٢٩.

([٤]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر ١٢/ ٤٩٠. ١٣/ ٢٨٠. و الصحيح ، مسلم بن الحجاج ١٣/ ٤٦

([٥]) ينظر : فيض القدير ،محمد المناوي ١/ ٥٩. أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث : (الأعمال بالنيات) و (الحلال بين والحرام بين) و (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد). واختلف في الحديث الثالث فقيل : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) وقيل : (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا) .

([٦]) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي ،محمد الصباغ ٦٢.

([٧]) فيض القدير ، المناوي ١/ ٥٩.

([٨]) : ينظر : الصحيح ، مسلم ١٣/ ٤٧. وشرح مشكاة المصابيح ، الطيبي ١/ ٧٤.

([٩]) ينظر : الصحيح مسلم ١٣/ ٤٧.

([١٠]) ينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين محمود العيني ١/ ٥٣. ودراسات جديدة في إعجاز القرآن للمطعني ١٢٨.

([١١]) ينظر : البلاغة في القرآن والسنة ، عزة جدوع ، ٢٩٧.

([١٢]) تاج العروس ، الزبيدي ، ٨/ ٣٤.

وأكل ([١]) . وأل للعهد الذهني ، وقيل : للاستغراق (أعمال الواجبات والمندوبات والمباحات) وبالنيات (الإخلاص والرياء)، وهو الأقوى لأن الرسول ﷺ ما بعث إلا لبيان الشرع([٢]) .

والنيات : جمع نيّة وهي العزم ، من نوى ينوي من باب ضرب ، والنية : قصد الفعل ، وإرادته لموافقته لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مآلا . والباء في قوله : (بالنيات) للمصاحبة ، ومتعلقها محذوف تقديره : وإنما الأعمال تحصل بالنيات أو توجد بها، " وقيل للاستعانة ، وقيل : للسببية لأنها مقوية للعمل فكأنها سبب في إيجاده " ([٣]) . فإن قيل : إن النيات جمع قلة كالأعمال ، بمعنى قابل جمعاً بجمع ، وهي للعشرة فما دونها ، لكن المعنى : أن كل عمل إنما هو بنية سواء كان قليلاً أو كثيراً . فالجواب : بأن الفرق بالقلة والكثرة إنما هو في النكرات لا في المعارف ([٤]) . وفسر بعضهم هذا بأن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال ، كمن قصد بعمله وجه الله أو تحصيل موعوده، أو اتقاء وعيده ([٥]) .

وقوله : " وإنما لكل امرىء ما نوى " الامرؤ : الرجل وفيه لغتان : امرىء كزبرج ، ومرء كفلس ، ولا جمع له من لفظه ، وهو من الغرائب ، لأن عين فعله تابع للام في الحركات الثلاث . وآثر (امرؤ) بدلاً من

(إنسان) لأنه مأخوذ من المروءة وهو الكرم ([٦]) . والواو عاطفة الجملة الثانية على الجملة الأولى ، لاتفاق الجملتين في الخبرية، والتناسب بينهما في المعنى فالجملة الأولى موضوعها في النيات ومنزلتها في قبول الأعمال ، والثانية تدور في معنى النية وتفقدها ، ولذا وصلتا .

قال القاضي عياض : " وهاتان قاعدتان عظيمتان ، فالجملة الأولى تضمنت أن العمل الاختياري لا يحصل بغير نية بل لا بد للعامل من نية الفعل والتعيين فيما يتلبس به . والثانية تضمنت أنه يعود عليه من نفع عمله وضرره بحسب المنوى " ([٧]) . " وفائدة العطف بيان أن تعيين المنوي شرط ، فلو كان على إنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة بل يشترط أن ينوي كونها ظهراً مثلاً ، ولولا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين أو أوهم ذلك " ([٨]) . وفي هذه الجملة قصر الموصوف على الصفة ، إذ المراد أن لكل إنسان من عمله ما اتصف بوجود النية الصالحة فيه .

وقال الكرماني : " هذا قصر للمسند على المسند إليه ، إذ المراد : إنما يعمل كل امرىء ما نوى ، إذ القصر بإنما لا يكون إلا في الجزء الأخير.. ، وفي الجملة الثانية حصران : الأول : من إنما ، والثاني : من تقديم الخبر على المبتدأ " ([٩]) . وإذا تأملنا كلامه نجد أن فيه تناقضاً لتعارضه مع المقاييس البلاغية ، وذلك لأن القصر في هذه العبارة قد جاء من (إنما) وحدها ، والمقصور عليه هو المؤخر ، والمعنى هو : (ليس لكل امرىء إلا ما نوى) أمّا التقديم في هذه العبارة فلا دلالة له على الحصر ، وذلك بسبب أن المقصور عليه مع التقديم هو المقدم ، ولو قدرنا دلالة التقديم على القصر لتناقضت العبارة في نفسها ، فالمعنى – على تقدير أن القصر من التقديم - : ليس الذي ينوي كل امرىء إلا له) ، وليس هذا هو المعنى المراد ، وإنما أريد المعنى الأول :

(ليس لكل امرىء إلا ما نوى) ، والتقديم هنا جيء به كأداة لتحقيق معنى القصر بإنما([١٠]) .

ويذهب كثير من العلماء إلى أن قوله- ﷺ - : (إنما الأعمال بالنيات) تفيد معنى غير المعنى في قوله : (وإنما لكل امرىء ما نوى) ([١١]) ، فبعضهم يرى أن الأولى نبهت على أن العمل يتبع النية ويصاحبها فيترتب الحكم على ذلك ، والثانية أفادت أن العامل لا يحصل له إلا ما نواه ، ولن يحصل له غيره ([١٢]) . ويدل لهذا ما فرعه عليه وعلى هذه بقوله – ﷺ - : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

وقوله : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، تأمل ارتباط هذه الجمل الثلاث وتقرير كل جملة منها بالتي بعدها ، وإيقاعها كالشرح لها تجده بديعاً وتعلم وجه اختصاص الرسول ﷺ بجوامع الكلم التي لا يهتدي إليها إلا الفحول . والفاء لعطف المفصل على المجمل . " والتعبير بالفعل

([١]) ينظر : الحقول الدلالية والصرفية للأفعال العربية ، سليمان فياض ، ١٣.
([٢]) ينظر : شرح مشكاة المصابيح ، الطيبي ، ١/ ٧٦. وفيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٥. ٥٥.
([٣]) عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٥٥. و فيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٦.
([٤]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٦١.
([٥]) ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٣٦. و البلاغة النبوية ، عزة جدوع ، ٢٩٨
([٦]) ينظر : البلاغة النبوية ، عزة جدوع ، ٢٩٨.
([٧]) فيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٦.
([٨]) الصحيح ، مسلم ، ١٣/ ٤٧.
([٩]) عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٥٨.
([١٠]) ينظر : أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية ، عامر الثبيتي ، ١/ ١٠٨.
([١١]) وممن ذهب إلى هذا الرأي العيني في كتابه : عمدة القاري ١/ ٥٨ ، ويذهب بعضهم إلى أن الجملة الثانية مؤكدة لمعنى الأولى ، تنبيهاً على شرف الإخلاص وتحذيراً من الرياء المانع مع الإخلاص . ينظر : عمدة القاري العيني١/ ٥٨
([١٢]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ١/ ٢٨١.

(كان) لا يرتبط بالزمن الماضي ، وإنما يدل على الكينونة وثبات الفعل ، لأن الأزمنة تستوي في الحكم التكليفي " ([١]) .

وأول ما يطالعنا هذا التقسيم بعد الجمع ، والتفصيل بعد الإجمال لما سبق . والهجرة : الترك ، أي ترك الوطن ومفارقة الأهل ، والانتقال إلى غيره . واختيار التمثيل بالهجرة لأنها تجمع الأعمال كلها . والهجرة إلى الله ورسوله تقتضي الإخلاص ، ولذا كان في تكرير لفظة (إلى الله ورسوله) في الشرط والجزاء تعظيم لمعنى تلك الهجرة وتفخيم لشأنها ، وكذا إظهار الاسمين الجليلين لتعظيمها وللتبرك والتلذذ بهما ، ولأن اسم الله الأعظم لا يجمع مع ضمير غيره ، وهذا من كمال أدبه- ﷺ -، والمعنى : أي : هي الهجرة الكاملة التي يستحق أن تسمى هجرة ، وأن ما سواها ليست بهجرة ، ولم يكن كذلك إلا أن تكون خالصة لوجه الله ولرسوله ﷺ .

ولهذا السر غيّر العبارة في متعلق الجزاء الثاني بلفظة (ما) حطاً من منزلتها ، وعدم الاحتفال بشأنها ، وتنبيها على أن العدول عن ذكرهما أبلغ في الزجر عن قصدهما ([٢]) . ويكون المعنى أي : ليست هجرته من الله في شيء ، فإنه ما طلب بها إلا الدنيا ، فله ما طلب وهو حقير ، ولأن ذكرها يحلو عند العامة فلو كرر ربما علق بقلب بعضهم فرضي به ، وظنه العيش الكامل .

فإن قيل : إنه أعاد في الجملة الأولى ما بعد الفاء الواقعة جواباً للشرط ، مثل ما وقعت في صدر الكلام ، ولم يعد كذلك في الجملة الثانية ؟ والجواب : بأن ذلك للإعراض عن تكرير ذكر الدنيا ، والغض منها وعدم الاحتفال بأمرها بخلاف الأولى فإن التكرير فيها ممدوح ([٣]) .

وعطف قوله : (أو امرأة يتزوجها) على (دنيا يصيبها) وهي مشتملة على ما لها وجاهتها وما يتعلق بها من الشهوات تخصيصاً بعد التعميم ، ليدل على أن النساء أعظمها ضراً وأكثرها تبعة([٤]) . . وفائدة التنصيص على المرأة مع كونها داخلة في مسمى الدنيا " للتنبيه على زيادة التحذير من ذلك ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً على مزيته "([٥]) . وفي قوله : (دنيا يصيبها) الدنيا بضم الدال على وزن فعلى ، مقصورة غير منونة ، وتجمع على دُنى ، والنسبة إليها دنيوي ودنيي ، والدنيا في الأصل صفة لأن التقدير : الحياة الدنيا ، وهي مشتقة من الدنو لسبقها على الآخرة أو لدنوها من الزوال ، أو من الدناءة لحقارتها وخستها ([٦]) ([٦]) . وتنكيرها للدلالة على حقارة شأنها والتزهيد فيها.

وفي قوله : (إلى دنيا) مجاز مرسل من تسمية الشيء باسم محله، إذ المقصود عرض الدنيا ومتاعها ويصيبها في محل جر صفة لدنيا ، من أصاب يصيب إصابة ، والمراد بالإصابة : الحصول أو الوجدان ، وفيه استعارة تبعية في الفعل . " حيث شبه تحصيل الدنيا عند امتداد الأطماع نحوها بإصابة الهدف بالسهم بجامع سرعة الوصول ، وحصول المقصود " ([٧]) .

ومجيء التكرار في الجملة الثالثة من الحديث (فمن كانت هجرته ...) للإقناع ولبيان أهمية الهجرة . وشكلت الإحالة الضميرية الأحد عشر ضميراً للغائب معنى النص وأبرزته وربطت بين أجزائه ربطاً محكماً يتحد فيه البناء شكلياً ودلالياً ([٨]) .

ثانياً : الحلال والحرام :

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مُشتَبَّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشُّبُهات كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقعه . ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حمًى ، ألا إنّ حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإنّ في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ([٩]) .

هذا الحديث الشريف من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة ، وذاك أنه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية ([١٠]) والجملة الأم في هذا الحديث هي الأولى (الحلال بيّن) ، والجملة الثانية (الحرام بيّن) كأنها الوجه الآخر للجملة الأولى ، هي الوجه الخلفي لأن الحلال هو الباب الأوسع ، والأصل في الأشياء الحل، أما الحرام فهو المساحة الممنوعة هو ما بعد الخط الذي هو حدود الله ([١١]) . والجملتان بمثابة جملة واحدة ، لأن المعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد ، والأولى الأصل ، والثانية تابع لها . والجملتان اسميتان تفيدان الثبوت والدوام ، فالحلال بيّن أي ظاهر واضح إلى قيام الساعة ، وكذلك الحرام .

([١]) عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٥٥.
([٢]) ينظر : فيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٨.
([٣]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٦١.
([٤]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ١/ ٧٨. وفيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٨.
([٥]) الصحيح ، مسلم ، ١٣/ ٤٨. وينظر : عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٦٠.
([٦]) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ١٤/ ٢٧٢-٢٧٣.
([٧]) فيض القدير ، المناوي ، ١/ ٥٨.
([٨]) ينظر : البلاغة في القرآن والسنة ، عزة جدوع ، ٢٩٩.
([٩]) فتح الباري ، ابن حجر ، ٢/ ١١٦، ٥/ ٢٥١. و الصحيح ، مسلم ، ١١/ ٢٢. عمدة القاري ،العيني ، ١/ ٤٥٩.
([١٠]) ينظر : الصحيح ، مسلم ، ١١/ ٢٣. و التصوير الفني في الحديث النبوي ، مُحَمَّد الصباغ ، ٦٢.
([١١]) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخاري ، مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى ، ٢٠٥.

ثم بدأ -ﷺ – الحديث بأسلوب خبري خال من المؤكدات ، لأن المقام لخالي الذهن ، فهو يقرر حقيقة واضحة لا يتوقع لها متردد أو شاك أو منكر ، فالضرب ابتدائي ، وعند مسلم (إنّ الحلال بين وإن الحرام بيّن) فيكون ضرباً طلبياً لوجود المؤكد (إنّ) . " وأفاد التكرار (بيّن) تأكيد المعنى وتحقيقه للاستقلالية في بيان كل من النقيضين " ([١]) ، مع ما أضافه الطباق من تأكيد المعنى وتقريره . والوصل بين الجملتين للمناسبة التامة في المعنى ، لأن الجملتين خبريتان وبينهما تناسب في المعنى . ففي الجملة الأولى أخبر عن وضوح الحلال وأنه معروف ، وكذلك في الجملة الثانية ، فالمناسبة بينهما مترابطة وقوية ..

و قوله : (وبينهما أمور مشتبهات) جملة ثالثة معطوفة على جملة (الحلال بين والحرام بين) ، لأنها كأنها استخرجت مما بينهما ، وقوله : (لا يعلمها – وعند مسلم / لا يعلمهن – كثير من الناس) جملة رابعة داخلة في حيز الجملة الثالثة لأنها وصف للمشبهات . وجملة (وبينهما أمور مشتبهات) .

" امتدت حتى كانت بقية الحديث ، لأن قوله ﷺ : (فمن اتقى الشبهات) تفريع منها ومرتب عليها ، وهذه الجملة المتفرعة ذات شقين ، شق هو من اتقى الشبهات ، وشق هو من وقع في الشبهات ، وكل واحد من الشقين مكون من شرط وجواب أو موصول وصلته ، والشق الثاني الذي هو : ومن وقع في الشبهات كراع حول الحمى هو الوجه الثاني للشق الأول ، وهو منه بمنزلة الحرام بين مما قبله ، وهكذا تجد الكلام له سمت واحد وبناء واحد ومذهب واحد ، وإذا كان الحلال هو الأكثر والحرام هو الأقل فإن من استبرأ هو الأقل ، ومن وقع في الشبهات هو الأكثر ، وهكذا يتوازن الكلام ويتعادل .. " ([٢]) .

وتقديم المسند (بينهما) على المسند إليه (أمور) للاختصاص ، وتقديم المسند المفعول به الضمير

(لها – هن) على المسند إليه (كثير – الفاعل) للتشويق . وفصل الجملة الثانية (لا يعلمها كثير من الناس) عن التي قبلها (وبينهما أمور مشتبهات) لكمال الاتصال ، حيث وقعت الجملة الثانية من الجملة الأولى بمنزلة التوكيد المعنوي ، لأن كونها مشتبهات يعني أنها قد تخفى على كثير من الناس ([٣]) .

والشرط في قوله : (فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه) للربط ، لكل عاقل ، يربط العاقبة ويعلقها على الفعل ترغيباً في اتقاء الشبهات . ولم يقل -ﷺ -: لا يعلمها جميع الناس ،وإنما قال: (لا يعلمها كثير من الناس) ؛ وذلك لأن بعض الناس من يعرفها، وهم العلماء، إما بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك ([٤]). والتعبير بقوله : (وقع في الشبهات) " يوحي بأن الخطأ هبوط يرمز إلى سفلية الشيطان والطبع الحيواني من الإنسان"([٥])

وتأمل الاستعارة في قوله : (وقع في الشبهات) استعارة مكنية تبعية وقعت في الفعل (وقع) ، حيث شبه الشبهات بالحفرة يقع فيها الإنسان ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الوقوع . ونلمح المقابلة بين : (فمن اتقى المشبهات) و

(وقع في الشبهات) والتي زادت المعنى وضوحاً وتقريراً .

وتأمل الدقة في تصوير المعنى وتقرير الغرض ، جاء في قوله :

(اتقى) فعل الشرط ، وجوابه : (استبرأ) وكذا في قوله :

(وقع) وجوابه المتوقع (وقع) . وإنما قال (وقع في الحرام) ولم يقل : يوشك أن يقع تحقيقاً لمداناتة الوقوع ([٦]) . وفي قوله :

(كراع يرعى حول الحمى) تشبيه تمثيلي لحال من يدخل في الشبهات بحال الراعي الذي يرعى حول المكان المحظور بحيث إنه لا يأمن من الوقوع فيه . وحذف مفعول يرعى اختصاراً.

وقال العيني : " يكون تشبيهاً ملفوفاً باعتبار طرفيه وتمثيلاً باعتبار الوجه " ([٧]) . حيث شبه المكلف بالراعي والنفس البهيمية بالأنعام ، والمشبهات بما حول الحمى والمحارم بالحمى وتناول المشبهات بالرتع حول الحمى ، ووجه الشبه حصول العقاب بعدم الاحتراز عن ذلك ، كما أن الراعي إذا جره رعيه حول الحمى إلى وقوعه في الحمى استحق العقاب بسبب ذلك ، فكذلك من أكثر من الشبهات وتعرض لمقدماتها وقع في الحرام فاستحق العقاب بسبب ذلك ([٨]) . وفي قوله : (ألا وإنّ لكل ملك حمى ، ألا إنّ حمى الله في أرضه محارمه) في الجملة الأولى نجد ثلاثة مؤكدات (ألا التنبيهية المؤكدة لمضمون الجملة – إنّ المؤكدة – اللام – والتقديم) ، ومجيئها متتالية يعطي حكماً على أن الخبر

([١]) بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع ، دراسة في الصحيحين ، ناصر راضي ، ٧١.
([٢]) شرح أحاديث من صحيح البخاري ، محمد أبو موسى ، ٢٠٦.
([٣]) ينظر : بلاغة الرسول ، ناصر راضي ، ٧٢.
([٤]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٢/ ١١٧. شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٨. وعمدة وعمدة القاري ، العيني ، ١/ ٤٦٧. و مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي محمد القاري ، ٦/ ١٢.
([٥]) الصورة الفنية في الحديث الشريف ، أحمد ياسوف ، ٣٦٣.
([٦]) ينظر : شرح المشكاة ، شرح الطيبي ٦/ ١٠.
([٧]) عمدة القاري ، العيني ،١/ ٤٦٨.
([٨]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٢/ ١١٨. وعون الباري لحل أدلة البخاري ، صديق صديق القنوجي ، ١/ ١٧٥- ١٧٨.

إنكاري، يزيل الشكوك والخواطر عند منكري مضمون الخبر([١]) .

وفي الجملة الأولى تقدم المسند (لكل ملك) على المسند إليه

(حمى) زيادة في الاهتمام وتربية للمهابة بذكر المضاف اليه ([٢])، ([٢])، مع ما للاختصاص من مزية ، والمعنى : أن كل ملك يحمي حماه لا يشاركه فيه أحد وتنكير (حمى) للتفخيم . وفي تكرير (ألا) التنبيهية دليل على عظم شأن مدلولها ([٣]) .

وإضافة(حمى) إلى لفظ الجلالة (الله) إشعار بالجلال وتربية للمهابة إذ المجترئ على هذا الحمى مرصود بعلم الله . وإضافة المحارم إلى الضمير العائد عليه تعالى حارس للنفس بعد وسائل الإيقاظ والتأكيد السابقة يزعها عن مقاربة تلك الحدود التي هي حماه([٤]).

وفي قوله : (ألا إن حمى الله في أرضه محارمه) " استعارة تمثيلية حيث شبه المحرمات التي حرمها الله ومن يقع فيها فيستحق العقاب ومن قاربها بالدخول في الشبهات يوشك أن يقع فيها بحال حمى ملوك العرب – على عادتهم – في حمى مراعي لمواشيها يتوعدون من يقربها ، فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته خوف الوقوع وغير الخائف يقرب منها ويرعى في جوانبها ، فلا يأمن من أن يقع فيها من غير اختياره فيعاقب على ذلك " ([٥]) . . فاستعار الحالة الثانية للأولى بجامع استحقاق العقاب بسبب تفريط أو غفلة في ارتكاب محظور في كلٍ .

ونجد فصلاً بين الجملتين الاسميتين لكمال الاتصال بينهما ، إذ وقعت الجملة الثانية مؤكدة لمعنى الجملة الأولى . أو لكمال الانقطاع للإشعار ببعد المناسبة بين حمى الملوك وحمى ملك الملوك . كما أن بين (حمى الأولى وحمى الثانية) جناساً تاماً ، فالمقصود بالحمى الأولى حدود ما يملكه الملك ، وبالثانية المحارم التي حرّمها الله على الناس ، ونكتة الجناس هنا أن النفس إذا كانت تدرك معنى الحمى في بداية الحديث ترتدع في الثانية ، وكأن الأولى مهدت لفهم الثانية . " وأتت كلمة (في أرضه) مع حمى الله ، ولم يذكرها في حمى الملوك ، لأنها قريبة من كلمة (يرعى) من حيث هي مزيدُ لفتٍ لمعنى ، هذا المعنى هو الفرق بين حمى الملوك وليس لهم ملك حقيقي ، وحمى ملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض وملء ما بينهما " ([٦]) .

ولما كان التورع والتهتك مما يتبع ميلان القلب إلى الفجور والصلاح نبّه على ذلك بقوله : (ألا وإنّ في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ليقبل المكلف عليه فيصلحه ويمنعه من الانهماك في الشهوات والإسراع إلى تحصيل المشتهيات ، حتى لا يبادر إلى الشبهات ، ولا يستعمل جوارحه في اقتراف المحرمات ([٧]) . " وتأمل قوله -ﷺ- تجده كأنه يقصد إلى الإثارة والإيقاظ والتشويق وذلك بإضفاء هذا القدر من الغموض على حقيقة المضغة ، ولم يبين -ﷺ- ما هي ، وإنما ذكر أن صلاح الجسد بصلاحها وفساده بفسادها ، فتطلعت النفوس لمعرفة ماهيتها . وإيثار كلمة (الجسد) على كلمة الإنسان للإشارة إلى أن هذا الإنسان بدون هذه المضغة جسد لا غير " ([٨]) .

والواو التي في قوله : (وإن في الجسد مضغة) واو الاستئناف التي تعطف مضمون كلام على مضمون كلام ([٩]) . وللعيني رأى آخر في هذه الواو يراها عاطفة وليست استئنافاً والجامع كما يقول هو : " أن الأصل في الانتقاء والوقوع ما كان بالقلب لأنه عماد الأمر وملاكه .. " ([١٠]) . وكلاهما وجيه .

وتطالعنا الاستعارة التصريحية في قوله -ﷺ- : (إن في الجسد مضغة) حيث شبه القلب بالمضغة ، ثم استعير لفظها للقلب . وقدّم المسند (إن في الجسد) على المسند إليه (مضغة) لمضاعفة الانتباه إلى هذا العضو ، فهو على علو منزلته ليس غريباً ولا بعيداً منفصلاً ينشد خارج بناء الجسم ([١١])

وتنكير (مضغة) في الحديث للتعميم ليدخل فيها كل قلب ، وقال الطيبي " للتحقير " ([١٢]) . وقد تجيء للتقليل تعجباً من أمرها . وقوله : (إذا صلحت صلح الجسد كله) قوله : إذا صلحت ، أي المضغة ، وهي القلب ، وكلمة (إذا) ههنا على معناها الأصلي ، واستعملت هنا للدلالة على أن من القلوب ما يكون صالحاً ، ومنها ما يكون فاسداً ، وهو أمر مقطوع بوقوعه .

([١]) ينظر : مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٦/ ١٣.
([٢]) ينظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٢٠. ومن بلاغة الحديث الشريف ، عبد الفتاح لاشين ، ٣٠.
([٣]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٨.
([٤]) ينظر : الحديث من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٢٠. وبلاغة الرسول ، ناصر الراضي ٧٥.
([٥]) عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٤٣٨. وينظر : من بلاغة الحديث الشريف ، عبد الفتاح لاشين ، ٢٩.
([٦]) شرح أحاديث من صحيح البخاري ، محمد أبو موسى ، ٢١٢.
([٧]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٩. والقاري ، مرقاة المفاتيح ٦/ ١٤.
([٨]) شرح أحاديث من صحيح البخاري ، محمد أبو موسى ، ٢١٤.
([٩]) ينظر : مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٦/ ١٣.
([١٠]) عمدة القاري ، العيني ، ١/ ٤٦٤
([١١]) ينظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٢٠.
([١٢]) شرح المشكاة ، الطيبي ٦/ ١١.

وحملها على معنى الشرط المستبعد حصوله يفسد معنى الحديث فإنه لا يستبعد صلاح القلوب ، ولا فسادها ([١]) .

ونكتة تعبيره -ﷺ- بـــ (إذا) دون (إن) هو شدة حرصه ﷺ على تحقق صلاح القلب وسلامته وطهارته فاستعمل (إذا) التي يكون مدخولها متحقق الوقوع ، ولتؤكد ارتباط مصير جميع أعضاء البدن بالقلب صلاحاً أو فساداً ([٢]) .

ونلحظ المقابلة بين ضدين في قوله : (إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا فسدت فسد الجسد) ، وهي مقابلة تزيد المعنى وضوحا ، وتثبته في النفس ، وتحثها على الوقوف على حقيقة هذه المضغة والعمل على إصلاحها ليتحقق بصلاحها صلاح الجسد كله . وفي قوله : (إذا صلحت) كناية عن سلامة القلب ، وفي قوله :

(صلح الجسد) كناية عن ملازمة صاحبه للطاعة . وفي قوله:

(فسدت) كناية عن الجحود والكفران ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (فسد الجسد) كناية عن ملازمة صاحبه للمعصية والفجور . ونرى أنه- ﷺ - أعاد (ألا وإن) داخلتين على القلب مرتين ، للتنبيه على عظم شأنها وعظم موقعها ([٣]) . " وكذا ضرب من التشويق والإبهام وزيادة تقرير الانتباه ، فإن خاتمة هذا البيان الشريف (ألا وهي القلب) جاءت تفسيراً وبياناً للمضغة ، وتقريراً مباشراً لحقيقة القضية من جذورها " ([٤]) . " " وجاءت بدون إن المؤكدة ، وكل الجمل التي دخلت عليها (ألا) كانت مؤكدة بإن وذلك لأن النفس تهيأت لتلقي هذا البيان بعد الجملة الطويلة التي أبهمت أمر القلب وسمّته مضغة ورجعت إليه إصلاح الجسد وفساده " ([٥]) .

ثالثاً : موقف القلوب من الفتن :

قال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ يقول : " تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكت فيه نكتةٌ سوداء ، وأيُّ قلبٍ أُنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيضَ مثل الصفا فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه " ([٦]) .

الحديث جاء في مقام التحذير من الفتن التي تعرض للقلوب ، وبيان ما تتركه من أثر . والحديث قائم على التباين اللوني الذي أدّى إلى تقديم لوحة رائعة ذات تضاد بين مشهدين ([٧]) . وقوله وقوله - ﷺ - : تعرض الفتن على القلوب ، أي توضع عليها وتبسط كما يبسط الحصير ، من عرض العود على الإناء والسيف على الفخذين يعرضه إذا وضعه ،والمعنى أنها تلصق بعرض القلوب أي: بجانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم ، ويؤثر فيه شدة التصاقها به ([٨]) ، فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير قضيباً قضيباً على صانعها واحداً بعد واحد، والجامع بين طرفي التشبيه الكثرة والتتابع مع شدة التلاصق واختلاف الحجم ([٩]) . وأفاد التشبيه جملة من الفوائد منها : بيان حال هذه الفتن ، والتعريف بها ، من أجل إعداد العدة لها والإلماح إلى ما فيها من شدة وصعوبة تنبع من كثرتها وتتابعها . والإشارة إلى أن الباعث إليها هو معرفة مواقف الناس منها ، كما أن الباعث إلى استعراض الصناع عيدان الحصير هو التأكد من جودتها ومعرفة مدى صلاحيتها . " ومعنى عوداً عوداً أي تعاد الفتن وتكرر شيئاً فشيئاً كما ينسج الحصير عوداً عوداً ، وشظية بعد أخرى ، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب يعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد " ([١٠]) .

ثم بدأ يفصل المجمل بقوله : (فأي قلب أشربها ...) وفي قوله :

(أشربها) دقة متناهية ، والمراد أن الفتنة دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها ، وأنها حلت محل الشراب ([١١]) . شبه القلب الذي أنكر الفتن ولم يتقبلها بالصفا أي : الحجر الصافي الملس الذي لا يعلق به شيء ولم يدخله لون ، ولم يشبه كدرة ، فهو قلب طاهر نقي لا تضره تلك الفتن ما دامت السموات والأرض بجامع الثبات وعدم التأثر في كليهما .

قال القاضي عياض : " ليس تشبيهه بالصفا بياناً لبياضه ، لكن له صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، وأن الفتن لم تلتصق به ولم تؤثر فيه كالصفا " ([١٢]) . ونبه الطيبي على (أبيض) بقوله: " وإنما ضرب المثل به ؛ لأن الأحجار إذا لم تكن معدنية لم تتغير بطول الزمان ، ولم يدخلها لون آخر ، لا

([١]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٢/ ١١٨.
([٢]) ينظر : بلاغة تطبيقية – دراسة تحليلية لمسائل البلاغة – بسيوني عبد الفتاح ، ١٣٠.
([٣]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ١١.
([٤]) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ،١٢١.
([٥]) شرح أحاديث من صحيح البخاري ،محمد ابو موسى ، ٢١٥
([٦]) الصحيح ، مسلم ، ٢/ ١٥٠.
([٧]) ينظر : الصورة الفنية في الحديث ، أحمد ياسوف ، ٦١٤.
([٨]) ينظر : الصحيح ، مسلم ، ٢/ ١٥٠. و الخصائص البلاغية ،محمد الحمزاوي ، ١٠٩. ١٠٩.
([٩]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ١٠/ ٤٨. و مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٩/ ٢٥٢.
([١٠]) الخصائص البلاغية للبيان النبوي ، محمد أبو العلا ، ١٠٩.
([١١]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ١٠/ ٤٨. ومرقاة المفاتيح ، القاري ، ٩/ ٢٥٢.
([١٢]) شرح المشكاة ، الطيبي ١٠/ ٤٩.

سيما النوع الذي ضرب به المثل ، فإنه أبداً على البياض الخالص الذي لا يشوبه كدرة " ([١]) .

ويؤكد هذا الجامع ويقويه قوله- ﷺ -: (فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض) ، والذي عبر فيه النبي- ﷺ - بالمضارع المسبوق بـــحرف النفي (لا) المشير بجرسه المختوم بألف المد – المؤدي إلى إطلاق النفس – إلى امتداد عدم الضرر واتساعه على نحو يصعب الوقوف على مداه ، وأوثر النفي على الإثبات لما فيه من اتساع وإحاطة لا يمكن معها وجود احتمال لحصول ضرر أي نوع ، وهو ما يؤكده تنكير المسند إليه فتنة الدال على العموم والشمول ، الذي يزيد من رفعة القلب الذي أنكر الفتن ، كما يزيد من إثارة المخاطب إلى الحرص على إنكارها للنجاة من كل أنواعها .

وجاء التعبير ب (لا تضره) دون (لا تصيبه) للإلماح إلى أن الفتنة من الممكن أن تحدث في زمانه ، وأن يصيبه شيء منها ، لكن هذه الإصابة لن يترتب عليها أي نوع من الضرر ، لا سيما في الدين ، بمعنى : أنه سيخرج من كل فتنة يتعرض لها أكثر إيماناً ، وأرسخ يقيناً . وجاء قوله- ﷺ -: (ما دامت السموات والأرض) لبيان مدى سلامة هذا القلب من الفتن بعد أن ألمح إليها في النفي بـــ(لا) ليكون في التصريح بعد التلميح نوع من تأكيد المعنى وتقريره ، بوروده مرتين ، إحداهما عن طريق التلميح ، والأخرى على سبيل التصريح .

وأوثر التعبير عن المسند إليه بـــ (السموات والأرض) دون ما يعبر به عن القلب أو صاحبه ، كأن يقال مثلاً : فلا تضره ما دام تحت السموات وعلى الأرض ، للإشارة إلى أن صاحب هذا القلب سيكون في أمان من الفتن بكل أنواعها في أثناء حياته وعند موته وبعد مماته ، وهو ما لا يتحقق إذا جاء التعبير بغير ما هو عليه ، وفيه من الترغيب ما لا يخفى .

وفي قوله : (والآخر أسود مرباداً مثل الكوز مجخياً ..) المرباد ، الربدة لون بين السواد والغبرة ، والمراد بإربداد القلب من حيث المعنى لا الصورة ، وإنما وصف القلب بالربدة لأنه أنكر ما يوجد من أنواع السواد بخلاف ما يشوبه صفا ويعلوه طراوة من النوع الخالص . والمجخي : المائل عن الاستقامة والاعتدال ([٢]) .

وهنا شبه القلب الأسود بالمرباد الذي أشرب الفتن واستسلم لها وشارك فيها أو تأثر بها بالكوز المنكوس الذي لا يثبت فيه شيء إلا ما أشرب هواه ، يعني لا يعرف القلب إلا ما قبل من الاعتقادات الفاسدة والشهوات النفسانية . ووجه الشبه عدم ثبات شيء فيها ، بل خروجه وضياعه .

وقال القاضي عياض : " ليس قوله (كالكوز مجخياً) تشبيهاً لما تقدم من سواده ، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قُلِب ونُكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة ، مثله بالكوز المجخي ، وبينه بقوله : لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً " ([٣]) .

وحفل الحديث الشريف بثلاث استعارات : حيث تطالعنا الاستعارة الأولى في قوله- ﷺ -: (تعرض الفتن على القلوب)، وهي استعارة مكنية تحولت معها الفتن من شيء معنوي إلى شيء حسي ، يتوالى ويظهر للناس واحداً تلو الآخر ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل (تعرض) للإشارة إلى أن هذه الفتن تتسم بالوضوح والظهور لجميع الناس ، وأنها لا تخفى و لا تلتبس على أحد منهم ، ومن ثم فإن إشرابها أو إنكارها يكون على بينة منها ومعرفة تامة بها .

والثانية في قوله- ﷺ -: (فأيُّ قلبٍ أُشربها) ، وهي استعارة تصريحية في الفعل (أُشربها)، حيث شبه تمكن الفتن من القلب ورضاه بها بالإشراب ، إذ المعنى : دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب ، ثم استعير الفعل

(أشرب) للتمكن ، للإلماح إلى استساغة هذا النوع من القلوب ، واستعذابه المشاركة فيها .

والثالثة في قوله- ﷺ -: (فلا تضره فتنة) ، وهي استعارة مكنية تضفي على المعنى نوعاً من الحركة التي تبرز ما عند الفتنة من إرادة ورغبة في عدم إلحاق الأذى بمن أنكرها ولم يسع إليها ، حيث شبهت الفتنة بإنسان يرى ويشاهد الناس ويميز بين مواقفهم من الفتن إنكاراً وقبولاً ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه في قوله : (و لا تضره) ، وكأن الفتنة قد أبصرت وتيقنت من إنكار صاحب هذا القلب لها ، وعدم سعيه إليها ، فانصرفت من نفسها عن إيذائه . وفي قوله (القلوب – قلب) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث أطلق الجزء وهو القلب وأراد الكل وهو الإنسان . وإيثاره القلب بالذكر دون غيره من الأعضاء كالعقل مثلاً لأنه مناط الفتن ومقصدها لما يتسم به من تقلب وتغير ، إذ هو المتحكم في أفعال البشر لقوله - صلى الله عليه وسلم - (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) .

وتسهم الكناية في تأكيد المعنى وتقريره ، ففي قوله -ﷺ -: (نكتة سوداء) كناية عن الضلال المتزايد والتخبط المستمر الذي يتسم به قلب من شارك في الفتن وتغلغل حبها فيه ، حتى نزلت منه منزلة الشراب الذي لا يستطيع الحياة بدونه . وبضدها تتميز

([١]) شرح المشكاة ، الطيبي ، ١٠/ ٤٩. وينظر : مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٩/ ٢٥٣.
([٢]) ينظر : النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، ١/ ٢٤٢، ٢/ ١٨٣.
([٣]) الصحيح ، مسلم ، ٢/ ١٥٠.

الأشياء ، ففي قوله- ﷺ -: (نكتة بيضاء) كناية عن الهداية والتوفيق واتباع الصراط المستقيم .

وكان لكل من المقابلة والجمع مع التقسيم أثره وشأنه في تحقيق الغرض المنصوب له البيان حيث وردت فيه أكثر من مقابلة ، ففي قوله- ﷺ -:

(فأيُّ قلبٍ أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء) قابل بين إشراب الفتن ، وما يترتب عليه من سواد القلب وضلاله في الطرف الأول ، وبين إنكار الفتن وما يترتب عليه من بياض القلب وتوفيقه في الطرف الثاني . وهي مقابلة تسعى إلى إرشاد المخاطب إلى ما يجب عليه فعله والقيام به عند حصول هذه الفتن ومشاهدته لها من خلال عرضها موقفين متباينين يمثل أحدهما الاتجاه الصواب، بينما يمثل الاخر الاتجاه الخطأ .

وفي قوله : (حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) مقابلة حيث قابل بين أربعة معان ، اثنان في قوله :

(أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)، واثنان آخران في قوله : (أسود مرباداً كالكوز مجخياً) .

وتأمل في هذه المقابلة تجد أنها بدأت بذكر القلب الأبيض مع تشبيهه بالصفا ، ترغيباً فيه ، وتنبيها إلى أنه الفضل ، وأخرت القلب الأسود مع تشبيهه بالكوز المنكوس تنفيراً منه . ثم إنها قابلت بين الأبيض والأسود ، وهما لونان أصيلان في أساليب الطباق والمقابلة ، ولكل منهما أثره البالغ في نفس المتلقي إذ تنشرح النفس للون الأبيض ، وتنقبض من اللون الأسود ، مما يساعد على تحقيق الغرض المقصود من الحديث . ثم إن التعبير في أول هذه المقابلة جاء بالفعل (تصير) الذي يوحي بالاستقرار والثبات وعدم التغير ، ويقوي هذا القول تعديته بعلى الدالة على التمكن .

ثم إن المقابلة وصفت كل واحد من الطرفين بجملة مطابقة لما يقابلها في المعنى دون اللفظ ، لما يقوم به هذا الأسلوب التقابلي من الإيضاح والبيان مع الاحتفاظ لكل طرف بما يخصه . فقد وصفت الطرف الأول (القلب الأبيض) بجملة (فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض) معبرة فيها بالفعل المضارع المنفي مع تنكير المسند إليه ، والمجيء بما يوضح المدى الزمني للضر المنفي في جملة (ما دامت السموات والأرض) والتي تدل على انتفاء الضر عن هذا النوع حياً وميتاً .

وفي التعبير بالحرف (ما) ومجيء السموات جمعاً وختم الجملة بلفظ (الأرض) الدال بجرسه السريع على حسم الأمر نوع من التناغم بين المعنى وجرس الألفاظ المعبرة عنه . كما أن في تصدير جملة الصفة بالفاء في قوله : (فلا) الدال على السببية إيذاناً بأن انتفاء الضر – أيّا كان نوعه – في المدى الزمني الذي أشار إليه التعبير متوقف على إنكار القلب لهذه الفتن وعدم سعيه إليها بأي صورة من الصور مما يزيد من الترغيب في هذا النوع الآمن من آثار الفتن إلى أن تزول السموات والأرض بأمر الله .

كما وصفت المقابلة الطرف الثاني (القلب الأسود) بجملة (لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) ، وهي صفة بنيت على المقابلة بين أربعة معان ، اثنين في قوله : (لا يعرف معروفاً) و آخرين في قوله : (ولا ينكر منكراً) ، مع التعبير في كل طرف بالمضارع المنفي بـــ (لا) الدال بجرسه على انتفاء الفعلين إلى أبعد مدى يمكن أن يتصوره الإنسان ، كما أن فيه إشعاراً بعدم تغير هذا النوع من القلوب عن الوصف المذكور أبد الدهر .

وفي تنكير المفعولين (معروفاً ومنكراً) نوع من التعميم الدال على استواء نظرته إلى المعروف بجميع أشكاله وتشابه رأيه في المنكر بكل أنواعه ، ويؤكد ذلك عطف جملتي المقابلة بالواو التي تفيد المصاحبة ، حيث إن فيه إشارة إلى أن هذا النوع من القلوب يتصف بالأمرين معاً فهو لا يعرف المعروف ، وفي الوقت نفسه لا ينكر المنكر ، ولو جاء البيان مقتصراً على الجملة الأولى لسبق إلى الفهم أنه لا يعرف المعروف ، ولكنه ينكر المنكر ، ولو اقتصر على الثانية لسبق إلى الفهم أنه لا ينكر المنكر ولكنه يعرف المعروف ، مما يدل على أن السعي إلى الفتن والمشاركة فيها لا يجتث بذرة الخير من القلب ، وذلك من شأنه ألا ينفر من هذا النوع وهو على خلاف ما يقصد إليه الحديث الشريف.

ويأتي الاستثناء (إلا ما أشرب من هواه) ليزيد من إيضاح صفة هذا القلب حيث عبر فيه بالفعل

(أشرب) للدلالة على تغلغل الهوى في نفس صاحبه وحلوله منه محل الشراب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية المؤذنة بغلبة الهوى .

كما جمع الرسول- ﷺ - ثم قسم في قوله : (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء) . وجمع ثم قسم أيضاً في قوله : (حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود

مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) .

وفي ذلك تأكيده وتثبيته في الأذهان من خلال وروده مرتين إحداهما : على سبيل الجمع ، والأخرى على سبيل التقسيم ، كما أن في ذلك استيفاء لجميع الأقسام في المرتين، فليس ثمّ قسم ثالث في القسمين ، وقرن كل قسم بما يليق به كالنكتة السوداء والنكتة البيضاء في التقسيم الأول ، والتشبيه بالصفا والتشبيه بالكوز المجخي في التقسيم الثاني ، وفي ذلك من الترغيب والتنفير ما يساعد على تحقيق الغرض من التقسيم

رابعاً : الخصال السبع الموصلة إلى ظل عرش الرحمن :

عن أبي هريرة- رضي الله عنه - عن النبي- ﷺ - قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله – عز وجل - ، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه " ([١]) .

في الحديث الشريف أسلوب تشويق وترغيب حيث ذكر الجزاء قبل الأعمال ، وذكر الإجمال ثم فصل ذلك ونشره حتى تتعلق القلوب بما بعده . والتعبير بالجملة الاسمية من أول الحديث لإفادة الثبوت والاستمرار ، فهؤلاء السبعة حكم الله عليهم ورسوله بأنهم مستمرون في ظل الله وكنفه ورحمته .

وقوله : (سبعة) أي سبعة أشخاص ، وإنما قدرنا هكذا ليدخل فيه النساء ، فالأصوليون ذكروا أن أحكام الشرع عامة لجميع المكلفين ، وحكمه على الواحد حكم على الجماعة إلاّ ما دل الدليل على خصوص البعض .

فإن قلت : " ما وجه التخصيص بذكر هذه السبعة ؟ قلت : التنصيص بالعدد في شيء لا ينفي الحكم عما عداه ، فقد روى مسلم من حديث أبي اليسر مرفوعاً : (من انظر معسراً أو وضع له أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) ، وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية فدل على أن العدد المذكور لا مفهوم له"([٢]).

وتنكير سبعة لبيان قدر هؤلاء المكرمين ورفع مكانتهم وسمو موضعهم ([٣]) . وأنث العدد لأن معدوده مذكر وهو (رجال) ، فالتخصيص إما بالإضافة (سبعة رجال) وإما بصفة محذوفة

(سبعة كرام) وسبعة : مبتدأ وخبره جملة (يظلهم الله)، أي : يسترهم في ستره ورحمته . ولفظ الجلالة يضفي على هذا الظل الفخامة والرعاية والعناية والتكريم. وتقديم المفعول به (الضمير) على الفاعل (الله) للاهتمام وبيان منزلتهم ومكانتهم .

والظل والفيء لفظان مختلفان لكل منهما دلالته اللغوية والسياقية في المعنى ، ووجه الفرق بينهما : أن الظل : بالكسر نقيض الضحّ يعني الشمس ، جمع ظلال وظلول وأظلال ، يكون بالغداة إلى الزوال ، بينما الفيء يكون بالعشي ([٤]) والظل من كل شيء : شخصه لمكان سواده .

وأما الفيء ففي أصل اللغة هو الرجوع ، يقال : فاء يفيء فيئاً رجع ، وبابه باع ، جمع أفياء وفيوء . وحقيقة الفيء الظل بعد الزوال إلى الغروب ينبسط شرقاً ، سمي فيئاً لرجوعه من جانب الغرب إلى جانب الشرق ، ومن هنا قيل : الشمس تنسخ الظل ، والفيء ينسخ الشمس ([٥]) .

" والظل يكون غدوة وعشية ، ومن أول النهار إلى آخره ، ومعنى الظل : الستر ، ومنه قولهم : أنا في ظلك ، أي في ذراك وسترك وكنفك وحمايتك ، ومنه ظل الجنة ، وظل شجرها : إنما هو سترها . وأما الفيء فلا يكون إلا بعد الزوال ، ولا يقال لما قبل الزوال فيء ، وإنما سمي بعد الزوال فيئاً لأنه ظل فاء من جانب إلى جانب ، أي رجع والفيء الرجوع " ([٦]) .

قوله : (في ظله) تأكيد وتقرير لقوله- ﷺ -: (يظلهم) ، فإن (يظلهم) يحتمل أن يراد به ظله أو ظل غيره ، فجيء به نفياً لظل الغير ، وكذا قوله- ﷺ - : (يوم لا ظل إلا ظله) على نفي جنس الظل وإثبات ظله تقرير له ، يعني أن الله يحرسهم عن كرب الآخرة ويكنفهم في كنف رحمته ([٧]) .

والتعبير بـ (في) هنا لبيان أنهم مغموسون مغمورون مظروفون في ظل ربهم . وإضافة الظل إلى الله إضافة تشريف وتكريم لبيان عظم هذه المكرمة و كذلك إضافة ملك ، وكل ظل فهو لله وملكه . والمراد هنا ظل العرش ، لأنه مكان التقريب والكرامة

([١]) فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٥. الصحيح، مسلم ،٧/ ١٠٧.
([٢]) فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٥. و الصحيح ، مسلم ، ١٨/ ١٠٦. وعمدة القاري ،العيني ، ٥/ ٢٥٩.

([٣]) ينظر : أضواء على البلاغة النبوية ، إبراهيم الجعلي ، ١١٨.
([٤]) ينظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٤٦١. والفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ٣٤٢.ولسان العرب :١/ ١٢٤. ١١/ ٤١٥
([٥]) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ١/ ١٢٤.
([٦]) أدب الكاتب . ابن قتيبة ، ٢٦.
([٧]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٢/ ٢٧٢. ومرقاة المفاتيح ،القاري ، ٢/ ٤٠٥.

وليس المراد بالظل هنا ظل الجنة لقوله- ﷺ - : (يوم لا ظل إلا ظله) ، ولأن ظل الجنة إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة ، وهذا عام في حق كل من يدخلها ، والحديث يدل على امتياز هؤلاء السبعة من بين الخلق ، ولا يكون ذلك إلا يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين . وليس المراد به ظل الشمس ، لأن الشمس وسائر العالم تحت العرش وفي ظله ([١]) .

وفي إعادة (الظل) وتكراره أربع مرات للتركيز عليه ، ولبيان عظم هذا الظل يوم القيامة . وأفاد قوله ﷺ : (يوم لا ظل إلا ظله) زوال كل ظل ، ويؤكد هذا القول ويرشحه دخول لا النافية للجنس ، أي : لا ظل باق ولا موجود إلا ظلُّه سبحانه وتعالى .

والإمام العادل خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أحد السبعة : الإمام العادل . وهو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط ، وهو العدل في نفسه العادل في حكمه . ولم يقل : سلطان عادل لأن في السلطنة قوة وقهراً واستيلاء على حقوق الآخرين ([٢]) .

والعادل اسم فاعل من العدل . وروي : (الإمام العدل) ، وهو المختار عند أهل اللغة ، يقال إمام عادل وإمام عدل ([٣]) . قال النووي : " وكلتا الروايتين صحيحتان " ([٤]) . والعدل في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل ، وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً ([٥]) .

وفي قوله- ﷺ - : (عادل) إيجاز بالقصر حيث جمعت هذه الكلمة كل أنواع العدل المتصورة والمتوقعة من الإمام الحاكم المتصرف في أمور الناس . وبدأ بالإمام العادل لكثرة مصالحه وعموم نفعه وعظيم اجتهاده في ذلك ، ولبيان أهمية العدل في بناء المجتمعات ، وأنه أساس الملك وعليه قامت السموات والأرض ، و أخر الذاكر لله تعالى في الذكر لخفائه إذ لا يعرف أمره إلا الله تعالى ، وما بينهما من الأوصاف متدرج بينهما في الظهوروالخفاء([٦]).

الظهوروالخفاء([٦]).

قوله : (وشاب نشأ في عبادة الله) وروي : (وشاب نشأ بعبادة الله) وكلاهما صحيح ([٧]) . وعليه يكون معنى رواية الباء : نشأ متلبسا للعبادة أو مصاحبا لها أو ملتصقا بها . ومجيء حرف الجر (في) هنا لإفادة أنه مغمور في طاعة الله . وتنكيره لتكريمه وبيان مكانته ، ولتلتفت الأنظار إليه للاقتداء به . والتعبير بالفعل الماضي نشأ لإفادة الحدوث والتجدد فهو متأصل في الطاعة منغمس في جلالها ضارب بجذوره فيها.

وخص الشاب فلم يقل رجل نشأ ، لأن العبادة في الشباب أشد وأشق لكثرة الدواعي وغلبة البواعث على اتباع الهوى ([٨]) . ولأن العادة جرت بأن من شب علي شيء شاب عليه ، فإذا نشأ على العبادة ، وهو في شرخ الشباب وإبّان ثورة الشهوة فهو للعبادة ألزم عندما تكبر سنه ويعلوه الشيب ، ويقترب منه الموت

" وفي تقديمه على فئات المجتمع الأخرى من الرجال والنساء إشارة إلى العنصر الهام في بناء حضارة المجتمعات " ([٩]) .

والثالث : قوله : (ورجل قلبه معلّق في المساجد) ، قال الكرماني : أي بالمساجد ، وحروف الجر بعضها يقوم مقام بعض، ومعناه : شديد الحب لها والملازمة للجماعة ، ففيه كناية لطيفة، فقدكنى عن ملازمته للمسجد وتردده عليه، ومحافظته على الصلاة بالجماعة بتعلق القلب في المساجد ، وهو كناية عن صفة ([١٠]). وقد يكون فيه استعارة مكنية حيث شبهه بمصباح يضيء وهو معلق في المساجد ، فحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (معلق) على سبيل الاستعارة المكنية . وهذا يوحي أولاً بأنه على نور ، وهو نفسه نور وضياء ، ثم إنه معلق ، ومعلّق اسم مفعول ، والكلمة توحي بالرفعة والعلو والتمكن والظهور والنور والضياء . ويكون المعنى أنه لشدة حبه وكامل إخلاصه وتام صدقه اختاره الله ليكون مصباحاً معلقاً في بيته أو بيوته .

والخطاب هنا ليس لمجرد الإخبار بأحد الأصناف السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، فحينها يكون التعبير الصريح كافياً للدلالة ، وإنما أراد أيضاً – بآلية الاستعارة – الحجاج لهذا المقام من مقامات الإيمان ، ودلالات الرفعة وعلو المنزلة لغرض التحبيب والترغيب والإقناع بعمارة المساجد ([١١]) .

وجمع المساجد هنا يوحي بأنه كثير التنقل بينها ، ومحباً لها ومصلياً فيها . لا ينفك عن الصلاة في مسجد أينما أدركته الصلاة . وأل في المساجد للجنس ، أي جنس المساجد الكبيرة منها والصغيرة القريبة منها والبعيدة القديمة منها والحديثة .

([١]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٦. الصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٨. وعمدة القاري ، العيني ، ٥/ ٢٦٠ . فيض القدير ، المناوي ، ٥/ ١٦٥.
([٢]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٢/ ٢٧٢.
([٣]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٥/ ٢٦٠.
([٤]) فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٦. والصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٨.
([٥]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٢٦١.
([٦]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٦. الصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٨. وفيض القدير ، المناوي ٥/ ١٦٥.
([٧]) ينظر : ابن حجر ، فتح الباري ٣/ ١٢٦.ومسلم ، الصحيح ٧/ ١٠٨.
([٨]) فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٦. عمدة القاري ، العيني ، ٥/ ٢٦٠-٢٦١. فيض فيض القدير ، المناوي ، ٥/ ١٦٥.
([٩]) أضواء على البلاغة النبوية ، إبراهيم الجعلي ، ١٣٧.
([١٠]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٥/ ٢٦١.
([١١]) ينظر : البنية الحجاجية في كتاب اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، للطيب الرزقي ، ١٠٠- ١٠١.

والرابع : (ورجلان تحابا في الله) ، تحابّا أي : تحاببا ، اشتركا في جنس المحبة وأحب كل منهما الآخر ولما اجتمع الحرفان المتماثلان أسكن الأول منهما وأدرج في الثاني ، وهو حد الإدغام ، والمعنى : تبادلا المحبة فيما بينهما ، وأحب كل واحد منهما الآخر محبة حقيقية، وذلك لأن التفاعل يقتضي المشاركة والمبادلة في نفس الفعل .

وعد الرجلان بواحد من السبعة لأن لكل واحد منهما ما لصاحبه من الخصال الحسنة فكأن الحديث عن واحد .

" فإن قيل : قال : رجلان ، فيكون المذكور ثمانية لا سبعة فكيف التوفيق بينهما ؟ والجواب : عدت هذه الخصلة واحدة مع أن متعاطيها اثنان لأنها لا تتم إلا باثنين ، ولما كان المتحابان بمعنى واحد كان عد أحدهما مغنياً عن الآخر ، لأن الغرض عد الخصال لا عد جميع المتصفين بها " ([١]) . قال العيني : " المعنى : ورجل ورجل يحب غيره في الله ، والمحبة أمر نسبي فلا بد لها من المنتسبين ، فلذلك قال : رجلان " ([٢]) . وفي للسببية ، أي لأجل الله وفي رضاه ، لا لغرض دنيوي.

قوله : (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) أي : الحب في الله. والجملة إطناب يوضح المعنى ويقويه ، كما أن فيها مقابلة تزيد الفكرة صفاء وبيانا ، وضمير (ألف الاثنين) دليل الوحدة والتقاء القلب ، وكأنما صار الاثنان واحداً والجسدان جسداً واحداً لا جسدين . والعبارة تفيد خلوص المودة في الغيبة والحضور ([٣]) .

وفصل جملة (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) عن (تحابا في الله) لأن جملة (اجتمعا عليه) وما عطف عليها تفسير وبيان للتحاب في الله ، فالفصل لكمال الاتصال، حيث إن الثانية تقوم من الأولى منزلة عطف البيان من متبوعه .

والخامس : (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال) إلى الفاحشة ، والمنصب بكسر الصاد : الجاه والحسب والنسب الشريف . فهي امرأة ليست كسائر النساء ، إنما هي امرأة جمعت أكمل الأوصاف وأتمها .

وإنما وصفها بأكمل الأوصاف ، وخصصها بالذكر ؛ لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها ، وهي طالبة لذلك ، وقد أغنت عن مراودته ([٤]) . فقال : (إني أخاف الله) ، بهذه الجملة الاسمية المؤكدة ، وبالفعل المضارع / أخاف ، يخرج من ذرات جسده ، كأن فاه تحول إلى أفواه تردد القول مراراً وتكراراً بصدى واسع تصدعت معه وأمامه أركان المرأة . وخارت عظامها ، فأعمتها عن المعصية ، وأفاقت نفسها على عظمة لفظ الاسم الأعظم (الله) ، ففي ذكره هنا بدلاً من (الرب) ما فيه من الهيمنة والخوف والخضوع والقدرة والجبروت ([٥]) .

والجملة كناية عن امتناعه عن الفاحشة ، وعدم استجابته لطلب المرأة ، وهو كناية عن صفة ، واحتمال كونه قال ذلك بلسانه ليزجرها وينبهها ، ففيه اختصار بالحذف ، فكأنه قيل : فامتنع عنها، وقال : إني أخاف الله ([٦]) . وتنكير رجل كناية عن العموم بمعنى أي رجل . " والتنكير في امرأة يفيد تمام الأنوثة ، وأن حرارة الشهوة يتأجج نارها في قلبها " ([٧]) . وفي قوله : (دعته) أساليب الإغراء وألوان الإيقاع وصنوف الغنج المتوفرة للفاحشة .

والسادس : (ورجل تصدق بصدقة) نكر الصدقة ليشمل كل ما يتصدق به من قليل وكثير ، وظاهره يشمل المندوبة والمفروضة . ولكن نقل عن النووي أن إظهار المفروضة أولى من إخفائها ، وأما صدقة التطوع فالسر فيها أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء ([٨]) .

وفي قوله : (حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله) استعارة مكنية ، فقد شبه اليد اليمنى واليد اليسرى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الشخص الأول ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العلم في الأول والإنفاق في الثاني . وفيه من المبالغة في إخفاء الصدقة والاستتار بها ما فيه ([٩]) . وفصل جملة (حتى لا تعلم ..) عن عن الجملة السابقة لها لكمال الاتصال ، حيث قد جاءت مبينة أو مؤكدة لجملة (فأخفاها) ([١٠]) .

والسابع : (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) خاليا : حال منصوب ، أي من الخلق ، لأنه حينئذ يكون أبعد عن الرياء . والتعبير بالفعل الماضي (ذكر) لتحقق وقوعه ، والتعبير بلفظ الجلالة (الله) يلقي المهابة في النفوس ، والخوف في القلوب ، فيستشعر المؤمن جلال ربه ، وعظمة خالقه فتفيض عيناه بالدموع.

والتعبير بالفعل (فاضت) من الفيضان ، أي : نزلت بغزارة وبشدة ، وأسند الفيض إلى العين مع أن العين لا تفيض ، لأن

([١]) فيض القدير ، المناوي ، ٥/ ١٦٥.
([٢]) عمدة القاري ، العيني ، ٥/ ٢٦١.
([٣]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٢/ ٢٧٢.
([٤]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٧. والصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٩.
([٥]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٢/ ٢٧٢. وأضواء على البلاغة النبوية ، إبراهيم الجعلي ، ١٣١.
([٦]) ينظر : الصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٩.
([٧]) أضواء على البلاغة النبوية ، إبراهيم الجعلي ١٣٠.
([٨]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٢٧. والصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٩.
([٩]) ينظر : الصحيح ، مسلم ، ٧/ ١٠٩.
([١٠]) ينظر : أضواء على البلاغة النبوية ، إبراهيم الجعلي ، ١٣٩.

الفائض هو الدمع ، مبالغة كأنها هي الفائض ([١]) وهو مجاز عقلي عقلي بعلاقة المكانية .

خامساً : المؤمن والمنافق

عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه - قال : قال رسول الله- ﷺ - : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر " ([٢]) .

الحديث في بيان فضل قارئ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد ، وفي هذا التصوير النبوي البليغ يؤصل النبي ﷺ لعظمة كتاب الله الكريم وأهميته ، وغرضه بيان هذه العظمة والترغيب في رعايتها والاعتناء بها من الفرد المسلم في حياته ، وكان اعتناؤه ﷺ بالمشبه في هذه الصور التي جاءت مركبة من أربع صور تشبيهية جزئية قائمة على التضاد الذي جاء بأسلوب المقابلة بين النفي والإثبات (يقرأ / لا يقرأ) أو بشكل صريح (مؤمن / منافق) بترابط وتداخل عجيب في تناسقه وانسجامه وتناسبه في لفظه ومعناه بإيجاز بليغ عال .

وابتداءً نرى أن طرفي التشبيه في كل منهما مركبان ، والمشبهات بها مفعمة بالحواس ؛ توفر الأرضية التي تحط عليها المعاني في نفس المتلقي ؛ يعضدها في ذلك (مثل) التي تنشر في جو النص دلالات التعجب والغرابة فتشد المتلقي للغوص في هذه التشبيهات ، ثم إن أجزاء المشبهات عقلية مما جعل وجوه الشبه الناتجة عنها تخييلية ، يقول الطيبي : " اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد " ([٣]) . ووجه الشبه في كل تمثيلي كما قال العيني : " ووجه الشبه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح "([٤]). والأترجة نوع من الفاكهة يجمع بين طيب الرائحة وطيب الطعم وكثرة المنافع ، ولذا شبه - النبي ﷺ - المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به ويسير على نهجه وهداه بالأترجة التي جمعت بين الريح الطيبة والطعم الطيب ، وفيه إيحاء بما يعتري المؤمن القارئ من بركة القرآن وفضله شكلاً ومضموناً ، عقلاً وروحاً ، وهو تشبيه مرسل اعتمد الأداة (مثل) للجمع بين الطرفين .

وهو تشبيه تخييلي ينقل المتلقي بخياله للتفكر في الصورة بتأثير عجيب ، فالرائحة الطيبة والطعم الطيب يتحقق في وصف الأترجة (المشبه به) ولا يتحقق في وصف القرآن إلا تخييلاً في ارتباطه بوصف الأترجة بوجه شبه ينقل طيب الرائحة والطعم من الأترجة إلى طيب الظاهر والباطن للمؤمن الذي يقرأ القرآن . وتخصيص الأترجة بالتمثيل لأنه " يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وقيل : الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين ، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن " ([٥]) .

.

وزاد الطيبي : " حسن منظرها ، وطيب مطعمها ولين ملمسها ، تأخذ الأبصار صبغة ولوناً ، فاقع لونها تسر الناظرين ، تتوق إليها النفس قبل التناول ، تفيد آكلها بعد الالتذاذ بذوقها ، طيب نكهة ، ودباغ معدة وهضم ، واشتراك الحواس الأربع البصر والذوق والشم واللمس في الانتفاع بها .. " ([٦]) .

التشبيه الثاني : المؤمن الذي لا يقرأ القرآن في مقابلته للمؤمن الذي يقرأ القرآن مع نفي القراءة بالتمرة لا ريح لها وطعمها طيب . فهي حلوة المذاق طيبة الطعم ، ولكن ليس لها شكل حسن ولا ريح حسن وكذا المؤمن الذي يغفل عن قراءة القرآن فيهجره ولا يتلوه ولا يعمل به ولا يحسن صوته به ، فكلٌّ منهما باطنه حلو الطعم لكنه لا يظهر ريح التمرة ولا تظهر ثمرة القرآن على المؤمن .

ثم إن إثبات القراءة في قوله- ﷺ -:

(يقرأ القرآن) على صيغة المضارع ، ونفيه في قوله :

(لا يقرأ) ليس المراد منها حصولها مرة ونفيها بالكلية ، بل المراد منها الاستمرار والدوام عليها ، وأن القراءة دأبه وعادته ، أو ليس ذلك من هجيراه ([٧]) .

والتشبيه الثالث : شبه الرسول- ﷺ - المنافق الذي يقرأ القرآن ليزين ظاهره ويخفي باطنه السيء الخبيث بالريحانة التي انفردت بصفة الريح الطيبة واللون الأخضر الجميل دون الطعم الذي وصف بالمرارة ؛ إيحاء بما تضفيه قراءة القرآن وإن كان صاحبها

([١]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر، ٣/ ١٢٨.
([٢]) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٠/ ٥٦ . والصحيح ، مسلم ، ٦/ ٧٣.
([٣]) شرح المشكاة ، الطيبي ، ٤/ ٢٦٦. وينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٢٠/ ٥٣.
([٤]) عمدة القاري ، العيني ، ٢٠/ ٥٤. وينظر : مرقاة المفاتيح ، للقاري ، ٤/ ٦٢٠.
([٥]) ابن حجر ، فتح الباري ١٠/ ٥٧.
([٦]) الطيبي ، شرح المشكاة ، ٤/ ٢٦٥. وينظر : العيني ، عمدة القاري ٢٠/ ٥٤ . و فيض القدير ٧/ ٤٨٦.
([٧]) ينظر : شرح المشكاة ، الطيبي ، ٤/ ٢٦٦. عمدة القاري ، العيني ، ٢٠/ ٥٤. مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٤/ ٦١٩.

منافقاً . فريحها الطيب أشبه قراءته ، وطعمها المر أشبه كفره وذلك لخبث طويته .

والتشبيه الرابع المنافق وفي رواية الفاجر ([١]) يشبه الرسول- ﷺ - المنافق الذي لا يقرأ القرآن خبيث الظاهر والباطن بالحنظلة طعمها مر ولا ريح له ، قد جمع خلتين فاسدتين وميزتين قبيحتين : عدم الرائحة ومرارة الطعم . ثم إنه ﷺ ضرب المثل " بما تنبته الأرض ، ويخرجه الشجر ، للمشابهة التي بينها وبين الأعمال، فإنها من ثمرات النفوس ، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والتمر بالمؤمن ، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيهاً على علو شأن المؤمن ، وارتفاع عمله وعلمه ، ودوام ذلك ، وتوفيقاًعلى ضعة شأن المنافق ، وإحباط عمله ،وقلة جدواه" ([٢]).

يقول ابن الأثير : " وهذا من التشبيه المركب بالمركب ، ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما : الإيمان والقراءة بالأترجة ، وهي ذات وصفين هما الطعم والريح ، وكذلك يجري الحكم في غير المؤمن القارئ وفي المنافق القارئ والمنافق غير القارئ " ([٣])

وعند التأمل في أصل المشبهات بها نجد أنها تشير إلى رفع شأن المؤمن وتحط من شأن المنافق . وأن الأجزاء في المشبهات بها وصفت بالطيب إلا في الحنظلة فقد وصفت بالخبث إشارة إلى أن المنافق المشابه للحنظلة قد بلغ غاية النفاق حتى تجرد من كل خير ، ومع وجود الطعم المر في الصنفين معاً انتفى العمل الدائم المستمر عنهما وأورثهما إثماً مستمراً ([٤]) .

وأما علة اختيار الأداة (الكاف) دون غيرها فلأن المشبهات والمشبهات بها وإن تشابهت فإنها تختلف اختلاف نصح ، إن أجزاء المشبهات جمل فعلية دلالة على أنها مكتسبة وآتية عن سابق طلب ومستمرة متجددة عبر الزمن ، والحامل لها جاهد في اكتسابها ، متعمد في الاتصاف بها . أما أجزاء المشبهات بها فجمل اسمية دلالة على أنها ثابتة لم تأت عن اكتساب وسابق طلب ، بل وجدت مع وجدان حاملها ، فلا دخل للحامل فيها . وكل هذه التشبيهات مجتمعة شكلت لنا صورة بيانية مركبة جلت لنا المعنى الخاص بعلاقة المسلم بالقرآن الكريم وقراءته ، وما تحمله هذه العلاقة من فضل للقرآن الكريم من عدمه بحسب هذه العلاقة في ظاهرها وباطنها وظاهرها دون باطنها وباطنها دون ظاهرها ودون الظاهر والباطن .

سادساً : صنفان من أهل النار :

عن أبي هريرة- رضي الله عنه - قال : قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: " صنفان من أهل النار لم أرهما . قوم معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مُميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليُوجد من مسيرة كذا وكذا"([٥]) .

يقدم نص الحديث مقابلة مذمومة بين أنموذجين من أهل النار ، وكلاهما في الدنيا ، الأول أصحاب السياط وهم أصحاب الشرط ، أما النموذج الثاني فيعبر عن فساد النساء ، وقد بدأ الرسول- ﷺ - حديثه عنهما بأسلوب خالٍ من المؤكدات ؛ لأن المقام لخالي الذهن من الحكم والتردد فيه ، حيث إن الخبر من الأمور المستقبلية التي لم يكن للمخاطب بها علم .

وقوله : (صنفان من أهل النار لم أرهما) مبتدأ ، مثنى نكرة موصوف بما بعده ، خبره (لم أرهما) ، وهذا الوصف هو الذي سوغ الابتداء بالنكرة ، وهذا التنكير فيه نوع من الإبهام يجعل النفس تستشرف إلى معرفته ، وكونه مثنى يزيد هذا الاستشراف ويصعد التشويق لتفصيل هذا المثنى المجمل في قوله :

(صنفان) حتى إذا ما جاء هذا التفصيل وافق أسماعاً مرهفة وعقولاً يقظة فيتمكن المعنى . وأفاد الاحتراس في قوله : (ولم أرهما) تنزيه مجتمع الصحابة من أمثال هؤلاء .

وقوله : (قوم معهم سياط كأذناب البقر) جملة فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال ، حيث إن الجملة الثانية وقعت من الجملة الأولى بمنزلة البيان والتفسير حيث أزالت إبهام النكرة الموصوفة بما بعدها . وفي الحديث الشريف تشبيه ، حيث شبه آلة التعذيب في أيدي أعوان الظلمة وهي السياط الطويلة يضربون بها الناس بغير حق بأذناب البقر الطويلة ، بجامع الطول والليونة في كل مما يجعل السياط أشد لذعاً وأكثر ألماً والغرض من التشبيه التنفير والتحقير من هذا العمل وهو من نوع التشبيه الحقيقي ؛ لأنه موجود ومتحقق في ذات الطرفين حساً ، وهما من الكيفيات الجسمية في المفاهيم الحسية البصرية من جهة الشكل والهيئة التي تدرك بالبصر . وفيه إشارة إلى مبالغة هؤلاء الظالمين في اختيار أداة التعذيب لأن المشبه به (أذناب البقر) يتسم بالليونة التي

([١]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ١٤/ ٤٥٤.
([٢]) شرح المشكاة ، الطيبي ، ٤/ ٢٦٥- ٢٦٦. وينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٢٠/ ٥٤. وفيض القدير ، المناوي ، ٧/ ٤٨٦.
([٣]) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، ٢/ ١١١. وينظر : التصوير الفني في الحديث النبوي ، محمد الصباغ ، ٦١.
([٤]) ينظر : عمدة القاري ، العيني ، ٢٠/ ٥٤.
([٥]) الصحيح ، مسلم ، ١٤/ ٩٢ . ١٧/ ١٥٧.

تجعلها مرنة ، فيكون وقعها أشد ألماً ، وتتميز بالطول مما يجعلها تنال أكبر حجم من جسم المضروب .

و قوله : (ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة) أي : يلبسن ثياباً رقاقاً تصف ما تحتها كاسيات عاريات في المعنى ، وأما مائلات مميلات فقيل : زائغات عن طاعة الله مائلات إلى الرجال ، متبخترات في مشيتهن مميلات أكتافهن يعلمن غيرهن مثل فعلهن ، وقيل : مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا .. وأما رؤوسهن كأسنمة البخت يعظمن رؤوسهن بالخمر والعمائم وغيرها مما يلف على الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت ([1]) . " والأسنمة في اللغة جاءت من سَنِمَ سَنَماً : سنم البعير إذا عظم وكبر سنامه . والبخت هي الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج ، وهي جمال طوال الأعناق ويجمع على بخت " ([2]) . وفي الحديث تشبيه ثان وهو جملة (كاسيات عاريات) فالمشبه كاسيات ، والمشبه به عاريات ، تشبيه بليغ لأن الأداة ووجه الشبه محذوفان .

والتشبيه الثالث هنا تشبيه مطلق بمقيد ، حيث شبه رؤوس هؤلاء النسوة اللاتي وردت صفاتهن وهذا فعلهن بأسنمة البخت المقيدة بصفة المائلة ، والجامع الارتفاع مع التمايل لغرض التحقير والتنفير من شكل المشبه . ومما يزيد التشبيه روعة ما جاء بعده من جناس اشتقاقي (مائلات مميلات) ، وما يوحي به وما يدل عليه من أنهن قد مِلْنَ عن الحق وانصرفن عن جادة الفطرة ([3]). وكذا أفصح الطباق بين كاسيات وعاريات عن التناقض بينهما . وفي قوله :

(كأسنمة البخت المائلة) إيغال ، حيث إن قوله المائلة صفة للأسنام المضافة للبخت . والبخت لفظة معبرة تجمع على

(البخاتى) ، وهي جمال طوال الأعناق وثمينة ([4]) مال سنامها من ترهل اللحم وأثر السمنة وهو إيغال في بيان صفة الانحراف إلى إحدى الجهات ومفارقة الاستقامة نصاً على صفة الاعوجاج في جانب المشبه به لتأكيدها في المشبه وهو المراد ([5])

وتتزاحم المؤكدات في قوله : (وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) حيث أكد بإن مع اسمية الجملة ولام التوكيد ، وكثافة المؤكدات لا ترجع هنا إلي إنكار المخاطبين أو شكهم ، وإنما ترجع إلى انفعال النبي ﷺ بالموقف وعنايته بالأمر لشدة خطره رغبة منه في نقل هذا الشعور بحجم الخطر إلى المخاطبين لإثارة انتباههم وتحقيق يقظتهم تجاه من تلبس بهذا الخطأ . ولما قال (لا يدخلن الجنة) نفى عنهن دخول الجنة ثم جاء قوله- ﷺ -(ولا يجدن ريحها) تتميماً أفاد حرمانهم من كل خير ، وأكد عدم دخولهم الجنة مما يستلزم بالضرورة دخولهم إلى النار . " ثم جاء قوله : (وإن ريحها ليوجد ..) إيغالاً في هذه الصفة حيث أشارت العبارة إلى عظم الفضل الذي حرموا منه . ولم يذكر للرجال مثلها اختصاراً أو إيجازاً " ([6]) .

ولا يخفى على ذي لب نكتة التعبير بالفعلين المضارعين المنفيين اللذين صورا البعد النفسي لخسرانهم وحرمانهم وتئيسهم . ثم جاءت الكناية لتؤكد هذا الحرمان في قوله : (من مسيرة كذا وكذا) عن طول المسافة التي ينبعث فيها عبق الجنة إشارة إلى توغل الصنفين في تباعدهم عن الجنة وتقاربهم من النار .

سابعاً : أكبر الكبائر :

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : قال النبي- صلى الله عليه وسلم - : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس- فقال : ألا وقول الزور ، قال فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " ([7]) .

في هذا الحديث الشريف يحذر الرسول- ﷺ - من أمور خطيرة مهلكة ، ولهذا فقد بدأ -ﷺ - حديثه ببيان خطر هذا الأمر وجلله بألا الاستفتاحية التي " جاءت للتنبيه وإثارة المخاطب وتنبيهاً له من غفلته ، وإيقاظاً لمشاعره ، وللدلالة على أهمية وخطورة تحقق ما بعدها " ([8]) ؛ لكي يصغي إلى ما يأتي بعدها من أمور مهمة ، ويشتد حرصه على اجتنابها . وزاد من خطورة الأمر وأهميته تكرار جملة العرض والتنبيه بقوله : (أنبئكم) كي يزداد المخاطب شوقاً لمعرفة ما سيأتي ([9]) .

والنبأ هو الخبر العظيم الذي له أهمية وشأن كبير وخطر شديد ، فذلك مما يزيد النفس تشوقاً إلى معرفة ذلك الأمر الجلل ، ولهذا

([1]) ينظر : الصحيح ، مسلم ١٧/ ١٥٨. وشرح المشكاة ، الطيبي ، ٧/ ١٠٨. ومرقاة المفاتيح ، القاري ، ٧/ ٨٣. ولسان العرب ، لابن منظور ١٢/ ٣٠٦. و من كنوز السنة ، محمد الصابوني ، ١٠٠.

([2]) جمهرة اللغة ، محمد بن دريد ، ٢/ ٨٦١. وينظر : لسان العرب لابن منظور ٢/ ٩ . ١٢/ ٣٠٦.

([3]) ينظر : التصوير الفني في الحديث الشريف ، محمد الصباغ ، ١٨٠.

([4]) ينظر : النهاية في غريب الأثر ، ابن الجزري ١ / ١٠١.

([5]) ينظر : صحيح مسلم ، شرح النووي على الصحيح ١٧/ ١٥٨.

([6]) شرح المشكاة ، الطيبي ، ٧/ ١٠٨. وينظر : مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٧/ ٨٤.

([7]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٦/ ٢٢١. الصحيح ، مسلم ، ٢/ ٧١.

([8]) رصف المباني في شرح حروف المعاني ، أحمد المالقي ، ١٥٦.

([9]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٦/ ٢٢٢.

أوثر التعبير بأنبئكم دون أخبركم ([١]) . ولما كانت هذه الكبائر مقررة بالكتاب ومقررة بالسنة في وصاياه " اكتفى بذلك العطف بينها ، لأنها ليست كل المقصود ولا أهم المقصود لظهورها فجعلت كالتمهيد لما يلي " ([٢]) . ثم زاد الاشتياق درجة أخرى باستعمال باستعمال (أفعل التفضيل – أكبر) التي أعطت الخبر المنتظر في خيال المخاطب حجماً لا يلتفت معه إلى شيء حتى يعرف مضمونه ، ثم رفع درجة التشويق أكثر بإضافة أفعل التفضيل لكلمة (الكبائر) فبلغ قمة الإثارة والتشويق ، وملك بها على المخاطبين أفهامهم وأسماعهم .

وأفادت الإضافة في قوله : (أكبر الكبائر) معنى التخصيص والجنسية حيث أضاف الجنس الأخص إلى الجنس الأعم ، فليست الكبائر عموماً ، وإنما هي أكبرها خصوصاً . وأفاد جمع الكبيرة على الكبائر الكثرة . ثم استعمل التكرار ثلاثاً لجملة (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ليتنبه السامعون على إحضار أفهامهم ، وليتمكن المضمون ويتأكد في أذهانهم ولتحذيرهم وترهيبهم من عواقبها ([٣]) .

وبين (أكبر والكبائر) جناس اشتقاقي ، وفائدته إحداث النغم الصوتي والتوازن الإيقاعي ، وتوكيد المعنى وتثبيته في ذهن القارئ أو السامع .

وبعد أن تهيأ الصحابة – رضوان الله عليهم – وتطلعت نفوسهم لمعرفة أكبر الكبائر حتى يجتنبوها أنصتوا في شوق ولهفة قائلين : (بلى يا رسول الله) ، واختيار (بلى) دون (نعم) أن حرف الجواب بلى يقع دائماً بعد النفي ([٤]) ، ولذا فهي تجعل النفي الذي قبلها مثبتاً ، فيكون المعنى : أي بلى ، أنبئنا بأكبر الكبائر . وعندئذ جاء الجواب مفصلاً بعد إجماله ، وهو نوع من أنواع الإطناب ، وهذا التفصيل يبين المعنى ويقرره ويحدث تطلعاً وتشويقاً فإن النفس تترقب بعد الإجمال البيان والتفصيل ، فقال: (الإشراك بالله) ، وهو خبر لمبتدأ محذوف ، وفيه حذف المسند إليه وتقديره : أول الكبائر ، أو أكبر الكبائر الشرك بالله ، لدلالة الكلام السابق عليه . والحذف هنا يضع المتلقي مباشرة في بؤرة الاهتمام بالموضوع فضلاً عن الإيجاز .

وأل للاستغراق والعموم . وتخصيصه بالذكر لغلبته في الوجود ، ولا سيما في بلاد العرب ، فذكره تنبيهاً على غيره من أصناف الكفر ([٥]) . وقدم الإشراك بالله لفظاعته ([٦]) . ثم ذكر النوع النوع الثاني في سياق الإطناب في البيان ، فقال : (وعقوق الوالدين) ، وفيه دلالة على خطورة العقوق على الأعمال . واكتفى بالعطف بينهما بحيث جعلت كلتاهما بمنزلة التمهيد لما يأتي بعدهما من أمور جليلة مهمة ([٧]) .

والتعبير بالوالدين دون الأبوين مراعاة لتغليب جانب الأم على جانب الأب في الحقوق . والإضافة للبيان ، أي أن الإضافة وضحت نوع العقوق المراد وهو عقوق الوالدين لأن العقوق متنوع " وجاء التعريف في

(الوالدين) للعهد وللجنس ، للعهد من حيث إن مفهوم الوالدين معهود لدى السامعين ، وللجنس : من حيث إفادة الشمول والعموم لجنس الوالدين ، ولذا جاء التعبير النبوي بـــ (عقوق الوالدين) دون عقوق والديك ؛ لإفادة المعنى المشار إليه سابقاً"([٨]) .

وقوله : (وكان متكئًا فجلس) الاتكاء : الاضطجاع على الجنب، والجلوس هو الانتقال من سفل إلى علو ، والجملة حالية تعكس الاهتمام والعناية ، وعبرت عن ذلك الفاء التي تفيد السرعة ، واختصار الزمن ، وسبب الاهتمام بذلك وتأكيد الحرمة كون الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس وأكثر تهاوناً بها ؛ لأن الحوامل عليه كثيرة : كالعداوة والحقد والحسد وغير ذلك فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه والشرك مفسدته قاصرة ، ومفسدة الزور متعدية ([٩]) . وهذا ما يميز الجملة الثالثة أو الكبيرة الثالثة عن سابقتيها في كونها فعلية عملية انعكست على المخاطبين فإن هذا الجلوس المفاجئ من الاتكاء يثير الدهشة ويربط المخاطب بالمتكلم بحاسة البصر بعد حاسة السمع مما يزيد الخبر المُلقى تمكناً في النفس وثباتاً مع الزمن .

وهناك ميزتان إحداهما : لفظية لها تمثلت في الفصل بين المتعاطفين بأداة التنبيه تأكيداً على تحريم قول الزور وتعظيم حرمته . والأخرى : دلالة التكرار مرات عديدة ، وهو أبلغ من التأكيد لأن فيه تقريراً وتنبيهاً وزيادة تأكيد على حرمة القول وشدة خطره .

ثامناً : محو الخطايا

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه سمع الرسول- ﷺ - يقول : " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ،

([١]) ينظر : الكليات ، أبو البقاء الكفوي ، ٨٨٦.
([٢]) الحديث من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ٨٣.
([٣]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ١١/ ٣٤٧.والبلاغة النبوية بين النظرية والتطبيق ، غالب الشاويش ، ٣٨٣.
([٤]) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن المرادي ، ٤٢٠. وبيان إعجاز القرآن للخطابي ٣١.
([٥]) ينظر : فتح الباري ابن حجر ، ٦/ ٢٢٢. ١١/ ٣٤٨.
([٦]) ينظر : البلاغة النبوية ، غالب الشاويش ، ٣٩٠.
([٧]) ينظر : البلاغة في القرآن والسنة ، عزة جدوع ، ٣١٥.
([٨]) البلاغة النبوية ، غالب الشاويش ، ٣٩٥.
([٩]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٦/ ٢٢٣. عمدة القاري ، العيني ، ٩/ ٥٠٦.

هل يبقي ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يبقي ذلك من درنه شيئاً يا رسول الله ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " ([١]) .

في هذا الحديث الشريف يبين النبي ﷺ فضل الصلوات الخمس، وعظيم أثرها في محو الذنوب ، وتكفير السيئات وتطهير الإنسان من أدرانه وأرجاسه . وقد بدأ حديثه بالاستفهام التقريري الذي يطلب منهم جوابه ، أي أخبروني هل يبقى ([٢]) ؛ ليطيل التشويق والتحفيز للسماع وجذب انتباه المخاطبين لبيان فضل الصلاة وأثرها في تكفير الذنوب ([٣]) . ولو لفظ يقتضي أن يدخل على الفعل وأن يجاب ، لكنه وضع الاستفهام موضعه تأكيداً وتقريراً ، والتقدير لو ثبت نهر صفته كذا لما بقي كذا ([٤]). والنهر جنبا الوادي ، سمي بذلك لسعته ، ونكر (نهرا) للتعظيم والاتساع ، أي : لو أن نهراً عظيماً في سعته وعذوبته وصفائه ونقائه وتجدده ، والمفردة توحي بالعذوبة والصفاء وحسن المنظر .

والباء في قوله : (بباب أحدكم) للإلصاق ، والمعنى : أنه نهر ملصق بباب أحدهم ، وهذا مثل لقرب ذلك النهر وتيسره ، كما أن الصلاة قريبة ميسرة لا عسر ولا مشقة . والتعبير بالفعل المضارع (يغتسل فيه) لاستحضاره الصورة مع التجدد والحدوث طرفي النهار وزلفاً من الليل يدل عليها العدد المحصور في اليوم، وكذلك الصلاة لا تأتي بأثرها إلا مع الاستمرار والتجدد والمداومة . وتأمل الظرف (فيه) ، أي : في النهر ، وهو أبلغ من لفظ منه ([٥]) ، لما يوحى به من دقة التمكن والتداخل ، منغمس مغمور مظروف فيه .

وفي الحديث تشبيه تمثيلي حيث شبه النبي ﷺ الذي يقبل على صلاته فتعمل أثرها بتطهير قلبه ونفسه فيكفر الله تعالى عنه ذنوبه وخطاياه بحال المغتسل الذي يغتسل بنهر جار كثير ماؤه كل يوم خمس مرات ، فينقيه من أوساخه وأدرانه ، فيخرج نظيفاً طاهراً ، والجامع بينهما التطهير والتنقية وإزالة الأوساخ الحسية والمعنوية الحاصل في كلٍ من الحالتين والهيئتين . وفائدة التمثيل التأكيد وجعل المعقول كالمحسوس ([٦]) .

وتقييد الاغتسال بالظرف (كل يوم) يؤكد تتابع التنظيف والتطهر ، ويقرر معناه ، وإضافة (كل) إليه إطراداً للمعنى عبر الزمان دلالة على اتصال النعيم ودوامه ([٧]) . والاستفهام في قوله : (هل يبقي ذلك من درنه شيئاً) للتقرير ، أي تقرير المخاطب بفضل الصلاة وأثرها في تكفير الذنوب .

والإشارة في (فذلك) للتعظيم والتقرير . " وداعي تقديم البيان وهو الجار والمجرور على المبين تعجيلاً بالمهم ، ثم تنكير المبين وهو (شيئاً) لإفادة التعليل ، فمعناه : شيئاً أي شيء مما كان قليلاً"([٨]) .

والفاء رابطة للنتيجة ، وكأنها تربط جواباً بشرط مقدر قبلها (إن يمح النهر الدرن فذلك مثل الصلوات الخمس ..) ولفظة (يمحو) من محي الشيء إذا ذهب أثره ، وفيه إيحاء على تراكم الذنوب والمعاصي .

" وإسناد فعل المحو إلى لفظ الجلالة وجعل الصلوات آلة المحو وسببه ، ليزيد التفات الذهن إلى أن الممثل له هو الجانب الأشرف والعمل الأسمى الذي ينيل العبد رعاية الله ، فإذا روعي مع هذا لفظ المفعول المحو وهو (الخطايا) جمع لا مفرد ، وبصيغة منتهى الجموع علم مقدار ما تفعل هذه الصلوات التي لم تنل منّا ما هي أجدر به من إيثار ، ومقدار غفلتنا عن نهر من النور لا يزيل درناً فحسب عن البدن ، وإنما يمحو آثاماً وخطايا تغمر العبد التارك فتقذف به في النار " ([٩]).

تاسعاً : الصوم وجاء

عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه- قال : كنا مع رسول الله- ﷺ - شباباً لا نجد شيئاً ، فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : " يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " ([١٠]) .

هذا الحديث الشريف موجه ومخصص لطائفة معينة هم الشباب ، وهو بمثابة الوقاية لهم قبل الإصابة بالمرض والوقوع في الزنا ، ولهذا بدأه بالنداء قصد تنبيههم واستمالتهم إليه فيصغون إليه بعناية وتشوق إلى ما بعد النداء . واختياره حرف النداء البعيد (الياء) إشارة لأهمية المنادى من أجله وعناية المنادى به مما يدفع المنادَى

([١]) فتح الباري ابن حجر ، ٣/ ١٠. الصحيح ، مسلم ، ٥/ ١٤٤. شرح المشكاة ، الطيبي ، ٢/ ١٧٢.
([٢]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٠.
([٣]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١٠. والحديث من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ١٥٦. محاضرات في البلاغة النبوية ، عيد بلبع ، ١٥٢.
([٤]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ٣/ ١٠. شرح المشكاة ، الطيبي ٢/ ١٧٢.
([٥]) ينظر : مرقاة المفاتيح ، القاري ٢/ ٢٦٧.
([٦]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ٣/ ١١.
([٧]) ينظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٥٦.
([٨]) الحديث من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٥٧.
([٩]) الحديث من الوجهة البلاغية ،كمال عز الدين ، ١٥٧. وينظر : من بلاغة الحديث الشريف عبد الفتاح لاشين ، ٨٠.
([١٠]) فتح الباري ، ابن حجر ، ١٠/ ٩٢ ، ١٠/ ٩٧. والصحيح ، مسلم ، ٩/ ١٤٧، ١٤٩. وشرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٢٣٤.

إلى متابعته ، كذلك تخطى النداء حدود الزمان والمكان تبليغاً لشباب الإسلام قاطبة في كل زمان ومكان ([١]) .

والتعبير بـــ (معشر) ومعشر الرجل أهله ، ونداؤهم فيه إشارة إلى تلك الرابطة التي تجمعهم وتشملهم مما يدفعهم إلى الترابط والتلاحم والاتحاد . وإضافة المعشر للشباب تخصيص لهذه الفئة العمرية ، لأن الشهوة عندهم أقوى ، واللذة عندهم أعظم ، وقلوب النساء بهم أعلق ، وإليها أميل ، ولهم أعشق ([٢]) .

وإيثاره التعبير بالاستطاعة دون القدرة إشارة إلى تمام الملك لمؤن النكاح والقدرة عليه لما في معنى الفعل من الطواعية ، كأن مؤن النكاح قد انقادت إليه ، أما التعبير بالقدرة وإن كانت تعني الاستطاعة لكن فيها مشقة شديدة وتعباً كبيراً ([٣]) . والباءة على على أصح الأقوال يراد بها معناها اللغوي وهو مؤن الجماع ، فتقدير الكلام : من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنه ، وهي مؤن النكاح فليتزوج ([٤]) . وعلى هذا القول بأن المراد بالباءة مؤن النكاح يكون استعمالها في الجماع من قبيل المجاز المرسل بعلاقته اللزومية ، لأن أصل الباءة في اللغة مشتقة من المباءة وهي المنزل فلما كان الجماع تلزمه المؤن عبر بالباءة عنها ([٥]) . وفائدة هذا المجاز تأكيد المعنى وتقريره في النفوس . والفاءات في قوله : (فليتزوج – فإنه أغض – فعليه بالصوم – فإنه له وجاء) تؤذن بضرورة الإسراع في الوقاية والتحصين .

والفاء الثانية في قوله (فإنه أغض للبصر) دخلت على إن المؤكدة للجملة الواقعة جواباً في السؤال عن السبب الخاص لتعلن أن مدخولها مرتبط بما قبله بالفاء التي تعطفه عليه عطف العلة على المعلول . والتعبير بأفعل التفضيل (أغض – وأحفظ) إشارة إلى أن الزواج هو أفضل طريقة للوقاية من الزنا . وغض البصر وإحصان الفرج كناية عن العفة والطهارة . والفاء الثالثة في قوله : (فعليه بالصوم) واقعة في جواب الشرط ؛ لأنه جملة طلبية لأن (عليه) اسم فعل أمر ، بمعنى فليلزم الصوم ، والأمر هنا للندب لا للإيجاب . والصوم هو الوسيلة الأخرى للوقاية من الزنا عند العجز عن مؤن النكاح يفهم ذلك من مقابلة الجملتين الشرطيتين ([٦]) .

([١]) ينظر : بلاغة الرسول ، ناصر راضي ، ٢٦٤.
([٢]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ، ١٠/ ٩٣. والصحيح ، مسلم ٩/ ١٤٧. وشرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٢٣٥. ومرقاة المفاتيح ، القاري ، ٦/ ٢٦٢.
([٣]) ينظر : بلاغة الرسول ، ناصر راضي ٢٦٥.
([٤]) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر ١٠/ ٩٣. والصحيح ، مسلم ، ٩/ ١٤٨. و شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٢٣٥. مرقاة المفاتيح ، القاري ٦/ ٢٦٢. ولسان العرب ، ابن منظور ، ١٣/ ٤٨٠.
([٥]) لسان العرب ، ابن منظور ، ١/ ٣٦. شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٢٣٥.
([٦]) ينظر : بلاغة الرسول ، ناصر الراضي ٢٦٦.

وقد عدل الرسول- ﷺ - ببراعة عن ترتيب الأمر بعدم التزوج الناتج عن عدم الاستطاعة بترتيب الصوم عليها إشارة منه أنه لا يجب ترك فرصة للشيطان يبعث فيه الرغبة الغريزية الفطرية المركبة فيه حال قوته وعدم قدرته على الزواج فجعل الصوم هو علاج غير المستطيع لمؤن النكاح ([٧]) .

والفاء الرابعة في قوله : (فإنه له وجاء) داخلة على إن المؤكدة للجملة الواقعة جواباً في السؤال عن السبب الخاص ، ولو حذفت هذه الفاء فقيل : (فعليه بالصوم إنه له وجاء) لكانت الجملة الثانية متولدة من الأولى ومنزلة منها منزلة الجواب من السؤال ، ويكون الفصل بينهما لشبه كمال الاتصال ، وتكون الثانية جواباً عن سؤال تثيره الأولى ، وهذا وإن جاز لا يستدعيه المقام . والوجاء : " أن ترض أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع ويتنزل في قطعه منزلة الخصي " ([٨]) وعليه فقد شبه الرسول ﷺ الصوم بالوجاء في دفع الشهوة وقطع شر المني ([٩]) . وأكد المعنى وجعله أتم وضوحاً .

الخاتمة :

وبعد فقد تمخضت هذه الدراسة عن نتائج أوجزها فيما يأتي :

أولاً : من خصائص البلاغة النبوية التي تجلت في دراسة الأحاديث الشريفة الدقة في اختيار اللفظة المفردة وجمال جرسها وقوته ، وحسن السبك في نظم الألفاظ ، وأول ما يطالعنا استعماله – ﷺ – لفظة الأعمال بدلاً من الأفعال ، وكذا استعماله لفظة امرؤ ، والجسد بدلاً من إنسان ، والهجرة بدلاً من الانتقال ، والتعبير بالاستطاعة دون القدرة . والتعبير باسم التفضيل (أغض للبصر وأحصن للفرج) بدلاً من الفعل .

و بالفعل (لا تضره) دون (لا تصيبه) ،و(ألا أنبئكم) دون أخبركم . وإيثار القلب على سائر الأعضاء.

كذا نلحظ جمال التعبير ودقته في قوله : (إلا ما أشرب هواه) ، وفي قوله : (وقع في الحرام) وفي قوله : (إمام عادل) ، وفي قوله : (وقلبه معلّق) ، وفي قوله (إني أخاف الله) (عقوق الوالدين) ، وكذا التعبير بالحروف كما في قوله : (في أرضه) و قوله : (بالنيات) وقوله : (في ظله). وبـــ إذا دون إن ... وقد كشفت الدراسة البلاغية عن سرّ هذه الدقة الدقيقة في مواطنها .

([٧]) ينظر : فتح الباري ، لابن حجر ١٠/ ٩٥. شرح المشكاة ، الطيبي ، ٦/ ٢٣٥. مرقاة مرقاة المفاتيح ، القاري ، ٦/ ٢٦٢.
([٨]) لسان العرب ، ابن منظور ، ١/ ١٩١.
([٩]) ينظر : صحيح مسلم ٩/ ١٤٨.

ثانياً : احتفلت الأحاديث الشريفة المدروسة بالصورة البيانية - التشبيه والاستعارة والكناية - والتي تعد من أبرز وسائل التعبير في عرض التوجيهات التربوية ، حيث يجعل القارئ كأنه يرى المشاهد والوقائع رأي العين ، وهذا من مظاهر الوضوح والجمال في تجسيد الحقائق وتوضيح المعنى وتصويره وتأكيده واستقراره في النفوس ، وتلتمع لنا في قوله : (وقع في الشبهات) و (كراع يرعى حول الحمى) وفي قوله : (ألا إن حمى الله في أرضه محارمه) و (إن في الجسد مضغة) ، وفي قوله : (لا تعلم يمينه ما تنفق شماله) ، وفي قوله : (تعرض الفتن على القلوب كالحصير) ، وفي قوله : (فأي قلب أشربها) ، وفي (فلا تضره فتنة) وفي الحديث الخامس التشبيه المركب : (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ...) الذي يشير إلى رفع شأن المؤمن ويحط من شأن المنافق . والتشبيه البليغ في : (كاسيات عاريات) وغير ذلك .

ونجد توظيفاً للكناية كما في قوله : (صلح الجسد) كناية عن ملازمة صاحبه للطاعة و (فسد الجسد) كناية عن ملازمة صاحبه للمعصية والفجور ساهم في تقرير المعنى وتوضيحه .

ثالثاً : كشفت الدراسة حرص الرسول -ﷺ- على إقناع أمته ومخاطبيه بما يريد من خلال توظيف الفنون البلاغية والأسلوبية في إثارة وجدانهم ومخاطبة عقولهم وتشويقهم ، ويتراءى لنا هذا في:

- براعة الاستهلال ،كما في قوله : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ، وفي قوله : (يا معشر الشباب) وفي قوله : (صنفان من أهل النار) وفي قوله : (سبعة يظلهم الله في ظله) .
- حسن الختام ، ويتجلى في قوله -ﷺ-: (ألا وهي القلب)
- الفصل لكمال الاتصال كما في قوله : -ﷺ- (لا يعلمها كثير من الناس) ، وفي قوله : ((ألا وإنّ لكل ملك حمى ، ألا إنّ حمى الله في أرضه محارمه) ، وفي (ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه) وفي (قوم معهم سياط كأذناب البقر).
- حسن الوصل والترابط التركيبي بين الجمل المتعاطفة كما في قوله -ﷺ-: (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس) وفي (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) وفي (فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) وغيرها .
- تنوع الأساليب ، حيث يطالعنا أسلوب القصر في قوله -صلى الله عليه وسلم - : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) لإثبات المذكور وتخصيصه . وأسلوب الاستفهام كما في قوله : (أرأيتم لو أن نهراً) ، وفي قوله : (هل يبقي ذلك من درنه شيئاً) . وأسلوب النداء كما في قوله : (يا معشر الشباب) . وأسلوب الاستفتاح كما في قوله : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) و (ألا وإن في الجسد مضغة ..). وأسلوب الشرط كما في قوله : (فمن كانت هجرته ..) وفي

(إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا فسدت فسد الجسد) وقوله : (فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه).

وأسلوب الخبر الابتدائي في قوله : (الحلال بيّن والحرام بين) وفي قوله : (سبعة يظلهم الله في ظله) وفي قوله : (صنفان من أهل النار لم أرهما) .. وأسلوب الخبر الإنكاري كما في قوله : (ألا وإنّ لكل ملك حمى ، ألا إنّ حمى الله في أرضه محارمه)

(وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) .

- بالإضافة إلى أسلوب الإضافة ، والتعبير بالفعل الماضي تارة وبالفعل المضارع تارة أخرى ، وتوظيف الجمل الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ، والجمل الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد واستحضار الصورة . وكذا نجد أسلوب التكرار والتشويق والإطناب والإيجاز بنوعيه ، وإظهار الظاهر بدلاً من المضمر ،..
- تقديم المسند على المسند إليه للاختصاص تارة ، ولزيادة الاهتمام وتربية المهابة تارة ، ولمضاعفة الانتباه تارة أخرى . وتقديم المفعول به على المسند إليه للتشويق ، وتقديم الجار والمجرور على عامله تعجيلاً بالمهم .
- دواعي التنكير ، إما للتفخيم كما في قوله : (حمىً) ، وإما للتعميم والتحقير كما في قوله -ﷺ-: (مضغة) ، وإما للتعميم كما في قوله : (رجل ، امرأة) و (معروفاً ومنكراً) ، وإما لبيان القدر ورفع المكانة والتكريم ،كما في قوله : (سبعة) و (شاب) (صدقة) وإما للتعظيم كما في قوله : (نهراً)
- المقابلة والجناس والتقسيم كما في (إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا فسدت فسد الجسد) ، وقوله -ﷺ- : (فأيُّ قلبٍ أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء) (حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) .

ولا شك أن هذه الفنون أسهمت في توضيح المعنى وتثبيته في النفس ، ولم تأت هذه الفنون لمجرد التزيين اللفظي بل تطلبها المقام ومقتضى الحال .

التوصية :

- توصي الدراسة الباحثين والدارسين بإثراء حقل الدراسات البلاغية بالبلاغة النبوية إلى جانب بلاغة القرآن الكريم ، لكون الناطق بها قد بلغ ذروة البيان العربي .
- في الدراسة التطبيقية للبلاغة النبوية يجب عدم الوقوف على موطن الشاهد في الحديث بل يلزم النظر للسياق الذي ضم الشاهد ؛ وذلك مما له أثر عن وضوح المعنى البلاغي وتجليه .

والحمد لله رب العالمين .

المراجع :

٠أدب الحديث النبوي ، أمين بكري شيخ ، ط٧، بيروت ، دار العلم للملايين ، ٢٠٠٥م

▪أدب الكاتب . ابن قتيبة عبد الله ، تح : مُحَمَّد محي الدين ، القاهرة ، دار الطلائع .

▪أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية ، الشبيتي عامر ، ط١، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٢٥هـ .

▪أضواء على البلاغة النبوية ، الجعلي إبراهيم ، ط٢، الرياض ، مكتبة الرشد ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م

▪إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي مصطفى ، ط٩، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣هـ

▪بلاغة تطبيقية – دراسة تحليلية لمسائل البلاغة – ، عبد الفتاح بسيوني ، ط١، مطبعة الحسين ، ١٤١٢هـ = ١٩٩١.

▪بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع ، دراسة في الصحيحين ، راضي ناصر ، ط١، القاهرة ، دار البصائر ، ٢٠٠٨م .

▪البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، جدوع عزة ، ط١، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٣٤هـ .

▪البلاغة النبوية بين النظرية والتطبيق ، الشاويش غالب، ط١، الرياض مكتبة الرشد ،١٤٣٠هـ .

▪البنية الحجاجية في كتاب اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، الرزقي الطيب ، دكتوراه ، الجزائر ، كلية الآداب واللغات – قسم اللغة العربية ، جامعة الأخوة ، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

▪بيان إعجاز القرآن ، الخطابي مُحَمَّد ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تح : مُحَمَّد خلف ، ومُحَمَّد زغلول ، ط٤، مصر ، دار المعارف .

▪البيان والتبيين ، الجاحظ عمرو بن بحر ، تح : عبد السلام هارون ، بيروت ، دار الفكر .

▪تاج العروس ، الزبيدي مُحَمَّد ، ط١، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٣٠٦هـ .

▪تاريخ آداب العرب ، الرافعي مصطفى ، ط١، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م .

▪التصوير الفني في الحديث النبوي ، الصباغ مُحَمَّد ، ط١، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٩هـ .

▪جمهرة اللغة ، ابن دريد مُحَمَّد ، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م .

▪الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي الحسن ، تح : فخر الدين قباوة ، ط٢، بيروت ، دار الآفاق ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

٠الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، كمال عز الدين ، ط١، بيروت ، دار اقرأ ، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م .

▪الحقول الدلالية والصرفية للأفعال العربية ، فياض سليمان، الرياض ، دار المريخ .

▪الخصائص البلاغية للبيان النبوي ، الحمزاوي مُحَمَّد ، ط١، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٨هـ .

▪دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، المطعني عبد العظيم ، ط١، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٤١٧هـ .

▪ رصف المباني في شرح حروف المعاني ، المالقي أحمد ، تح : أحمد الخراط ، ط٢، دمشق ، دار القلم ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

▪ .شرح أحاديث من صحيح البخاري ، أبو موسى مُحَمَّد ، ط٢، مصر ، مكتبة وهبة ، ١٤٣١هـ .

▪ شرح مشكاة المصابيح . الطيبي شرف الدين الحسن ، ط٢، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م .

▪ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض موسى ، تح : علي البجاوي ، مصر ، مطبعة عيسى الحلبي .

▪ الصحيح ، الحجاج مسلم ، شرح الإمام النووي ، تح : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، ط٥، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م .

▪ الصورة الفنية في الحديث الشريف ، ياسوف أحمد، ط١، دمشق ، دار المكتبي ، ١٤٢٣هـ .

▪ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، العيني بدر الدين محمود، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

▪ عون الباري لحل أدلة البخاري ، القنوجي صديق ، حلب ، دار الرشد ، ١٩٨٤م.

▪ الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري جارالله ، تح : علي البجاوي وزميليه ، مصر ، مطبعة الحلبي .

▪ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، العسقلاني ابن حجر، تح : عبد العزيز بن باز ومُحَمَّد فؤاد ، ط٤، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م .

▪ فيض القدير ، المناوي مُحَمَّد ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م .

▪ كتاب الفروق ، العسكري الحسن ، ط١، جروس ، طرابلس، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م .

▪ الكليات ، الكفوي أبو البقاء ، تح : عدنان درويش ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٢١هـ .

▪ لسان العرب ، ابن منظور مُحَمَّد بن مكرم ، بيروت ، دار صادر .

▪ النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير الجزري مجد الدين ، تح : طاهر الزاوي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .

▪ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ضياء الدين ، تح : أحمد الحوفي ، بدوي طبانه القاهرة ، نهضة مصرللطباعة .

▪ محاضرات في البلاغة النبوية ، بلبع عيد، ط١، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

▪ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، القاري علي مُحَمَّد ، ، تح : صدقي العطار ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م .

▪ معجم مقاييس اللغة ، بن فارس أحمد ، تح : عبد السلام هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ .

▪ معالم البيان في الحديث النبوي ، العسكر عبد المحسن ، ط١، الرياض ، دار المنهاج ، ١٤٣٥هـ .

▪ من بلاغة الحديث الشريف ، لاشين عبد الفتاح، ط١، الرياض ، شركة عكاظ ، ١٤٠٢هـ

▪ من كنوز السنة ، الصابوني مُحَمَّد ، ط٢، دمشق ، دار القلم ، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م .

Dr. Mohammed bin Ali bin Ayed bin Drah

College of Human Sciences

King Khalid University

Abstract

This study followed the analytical method that is based on studying hadiths and deriving the characteristics of the systems in them. It was organized into a preface and a main discussion preceded by an introduction and followed by a conclusion. The introduction revealed the importance of the research, the reasons for choosing it, its objectives, previous studies, methodology, and plan, and the introduction dealt with the conversation about the rhetoric of the Messenger, may God bless him and grant him peace. The main research was based on an analytical study of the noble hadiths, which dealt with the guiding aspect in order to understand the context of the hadiths, employ the arts of rhetoric and their values, and their analysis reveals an analysis About her secrets, and links them to the general context. I ended the research with a conclusion, in which I outlined the most important findings and the recommendations that emerged from the research. And attached to the index of sources and references, God bless.

Key words: rhetoric - hadiths - prophetic guidance - The correct ones.